موسوعة الأخلاق

الجزء الثالث

التَّأنِّي أو (الأَنَاة) - التَّضْحِيَة - التَّعاوُن - التَّواضُع

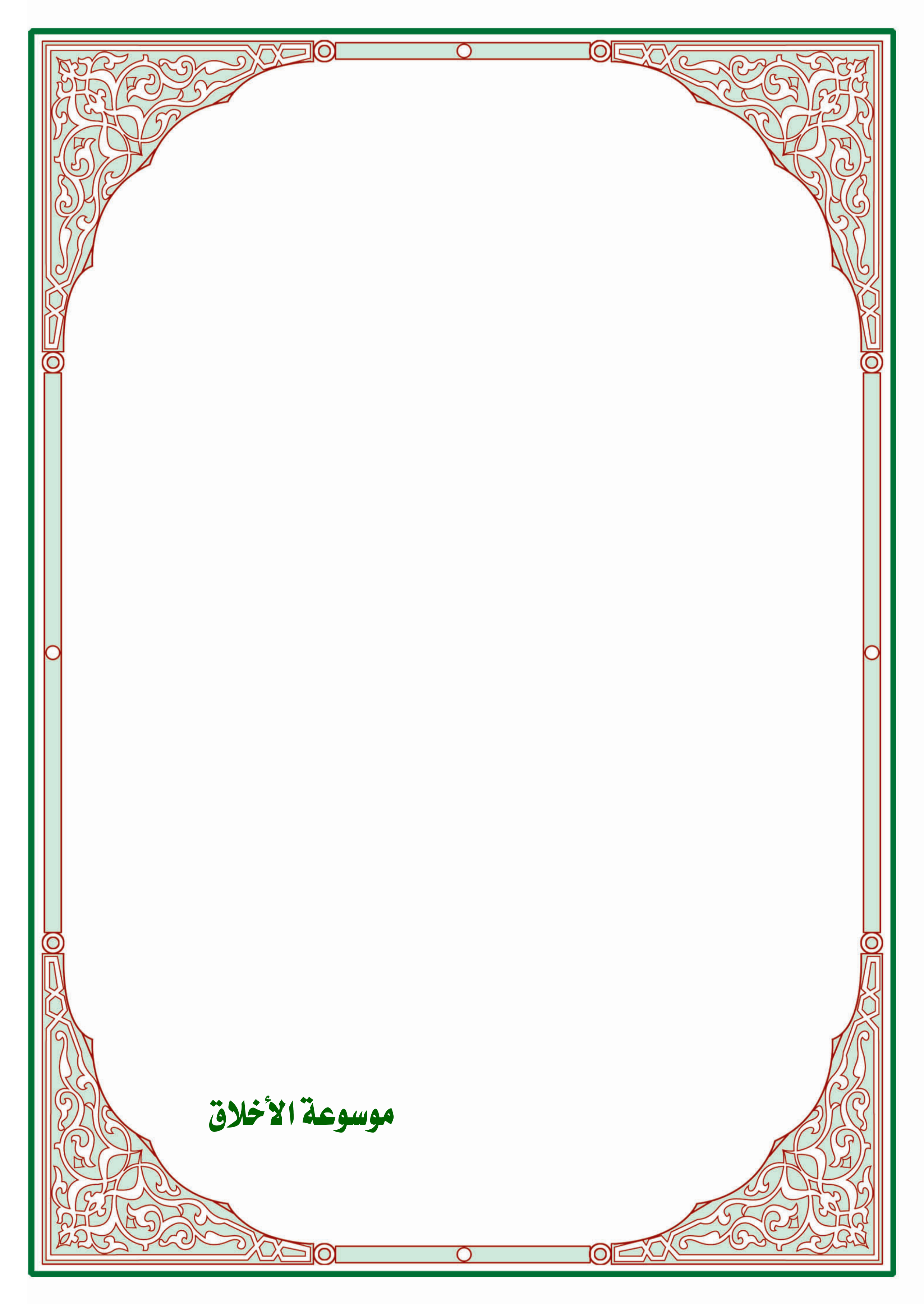
إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

عَلَوِيّ بن عبد القادر السَّقَّاف





موسوعة الأخلاق



موسوعة الأخلاق

الجزء الثالث

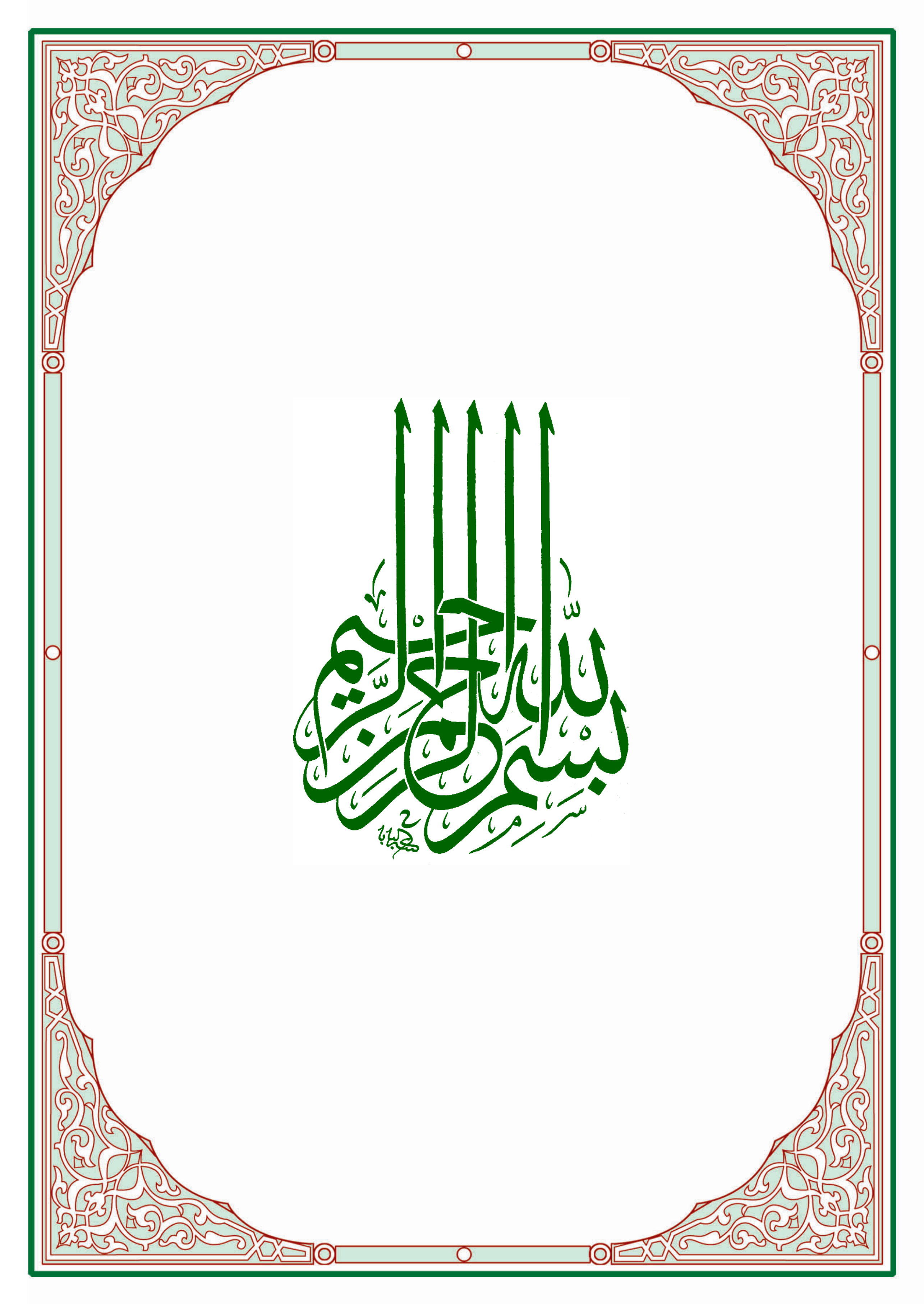
التَّأنِّي أو (الأَنَاة) - التَّضْحِيَة - التَّعَاوُن - التَّوَاضُع

إعداد

القسم العلمي بمؤسسة الدرر السنية

إشراف الشيخ

علوي بن عبد القادر السَّقَّاف


بسم الله الرحمن الرحيم



التَّأنِّـي أو (الأَنَاة)



التَّأنِّي أو (الأناة)

معنى التَّأنِّي لغةً واصطلاحًا:

- **معنى التَّأنِّي لغةً:**

الأَناةُ والأَنَى: الحِلم والوقار، وأَنِيَ وتَأَنَّى واسْتأْنَى: تَثبَّت، ورجل آنٍ -على فاعل- أَي: كثير الأَناة والحِلْم.

وتقول للرَّجل: إنَّه لذو أناةٍ، أي: لا يَعجَل في الأمور، وهو آنٍ: وقورٌ[(١)].

- **معنى التَّأنِّي اصطلاحًا:**

التَّأنِّي والأناة هو: التَّثبُّت وترك العَجَلَة[(٢)].

وقال أبو هلال العسكريُّ: (الأناة: هي المبالغة في الرِّفق بالأمور والتَّسبُّب إليها)[(٣)].

الفرق بين الأناة وبعض الصِّفات:

- **الفرق بين الأناة والتُّؤدة[(٤)]:**

أن التُّؤدة: مفارقة الخفَّة في الأمور،... فالتؤدة تفيد من هذا خلاف ما تفيد الأناة، وذلك أن الأناة تفيد مقاربة الأمر والتسبب إليه، والتُّؤدة تفيد مفارقة الخفَّة.

- **الفرق بين الأناة والحِلْم:**

كثير مِن العلماء يرى أنَّهما بمعنى واحد، فالحِلْم -في كلام العرب-: الأناة

---

(١) انظر: الصحاح ((تاج اللغة وصحاح العربية))، للجوهري (٦/٢٢٧٤)، ((مقاييس اللغة))، لابن فارس (١/١٤٢).

(٢) ((شرح صحيح مسلم)) للنَّووي (١/١٨٩).

(٣) ((الفروق اللغوية)) (١/٢٠٤).

(٤) انظر: ((المصدر السابق))

والعقل، والسُّكون مع القدرة والقوَّة، والأناة والأَنَى: الحِلْم والوقار[1].

وفرق بينهما أبو هلال العسكريُّ[2] بأن:

الأناة هي: التَّمهُّل في تدبير الأمور، وترك التَّعجُّل.

والحِلْم: هو الإمهال بتأخير العقاب المستحق.

التَّرغيب في التَّأنِّي:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النِّساء: ٩٤].

قال الطَّبري: (فتبيَّنوا، يقول: فتأنَّوا في قتل مَن أشكل عليكم أمره، فلم تعلموا حقيقة إسلامه ولا كفره، ولا تعجلوا فتقتلوا مَن الْتَبَس عليكم أمره، ولا تتقدَّموا على قتل أحدٍ إلَّا على قتل مَن علمتموه -يقينًا- حرْبًا لكم ولله ولرسوله)[3].

- وقال سبحانه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٠].

قال ابن عطيَّة: (هذا الفعل مِن يوسف -عليه السَّلام- أناةً وصبرًا وطلبًا

---

(١) ((المحكم والمحيط الأعظم))، لابن سيده (٣/٣٦٤)، ((مختار الصحاح)) للرازي (١/٢٤، ٨٠)، ((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (١/١٠٩٦) وانظر: ((اللباب في علوم الكتاب)) لابن عادل (٤/٩٦)، ((لسان العرب)) لابن منظور (١٢/١٤٦)، (١٤/٤٨).

(٢) ((الفروق اللغوية)) (١/٢٠٠، ٢٠٣-٢٠٤).

(٣) ((جامع البيان في تأويل القرآن)) للطبري (٩/٧٠).

لبراءة السَّاحة، وذلك أنَّه -فيما رُوِي- خشي أن يخرج وينال مِن الملك مرتبة، ويسكت عن أمر ذنبه صفحًا، فيراه النَّاس بتلك العين أبدًا، ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه، فأراد يوسف -عليه السَّلام- أن تَبِين براءته، وتتحقَّق منزلته مِن العفَّة والخير)(١).

- وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤].

(خلقها في ستَّة أيام -والله أعلم- لحكمتين:... الثَّانية: أنَّ الله علَّم عباده التُّؤدة والتَّأنِّي، وأنَّ الأهم إحكام الشَّيء لا الفراغ منه، حتى يتأنَّى الإنسان فيما يصنعه، فعلَّم الله -سبحانه- عباده التَّأنِّي في الأمور التي هم قادرون عليها)(٢).

- وقال عزَّ مِن قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

(قرأ الجمهور: فتبيَّنوا مِن التَّبيُّن، وقرأ حمزة والكسائي: فتثبَّتوا، مِن التَّثبُّت، والمراد مِن التَّبيُّن: التَّعرُّف والتَّفحُّص، ومِن التَّثبُّت: الأناة وعدم العَجَلَة، والتَّبصُّر في الأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتَّضح ويظهر)(٣).

ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة

- عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشجِّ -أشجِّ عبد القيس-: ((إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله: الحِلْم، والأناة))(٤).

(١) ((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) لابن عطية (٣/٢٥٢).
(٢) ((تفسير الحجرات – الحديد)) لابن عثيمين (١/٣٦٢).
(٣) ((فتح القدير)) للشَّوكاني (٥/٧١).
(٤) رواه مسلم (٢٥).

قال القاضي عياض: (الأناة: تربُّصه حتى نظر في مصالحه ولم يعجل، والحِلْم: هذا القول الذي قاله، الدَّال على صحَّة عقله، وجودة نظره للعواقب، قلت: ولا يخالف هذا ما جاء في مسند أبي يعلى وغيره: أنَّه لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأشجِّ: ((إنَّ فيك خصلتين...)) الحديث، قال: يا رسول الله، كانا فيَّ أم حدثا؟ قال: ((بل قديم))، قال: قلت: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبُّهما)[1].

- عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: ((التَّأنِّي مِن الله، والعَجَلة مِن الشَّيطان))[2].

قال المناوي: (التَّأنِّي مِن الله تعالى أي: ممَّا يرضاه ويثيب عليه، والعَجَلَة مِن الشَّيطان أي: هو الحامل عليها بوسوسته؛ لأنَّ العَجَلَة تمنع مِن التَّثبُّت، والنَّظر في العواقب)[3].

وقال ابن القيِّم: (العَجَلَة مِن الشَّيطان فإنَّها خفَّةٌ وطيشٌ وحدَّةٌ في العبد تمنعه مِن التَّثبُّت والوقار والحِلْم، وتوجب له وضع الأشياء في غير مواضعها، وتجلب عليه أنواعًا من الشُّرور، وتمنع عنه أنواعًا من الخير)[4] .

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) ((المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)) للنَّووي (١/١٨٩).

(٢) رواه أبو يعلى (٧/٢٤٧) (٤٢٥٦)، والبيهقي (١٠/١٠٤) (٢٠٧٦٧)
قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢/٣٥٩)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٢٢): رجاله رجال الصحيح، وجوَّد إسناده ابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (٢/١٢٠)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٣٠١١).

(٣) ((فيض القدير شرح الجامع الصَّغير)) (٣/١٨٤).

(٤) ((الروح)) (ص ٢٥٨)

((لو لبثتُ في السِّجن ما لبث يوسف لأجبت الدَّاعي))[1].

قال القاسمي: (مدحه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على هذه الأناة، كان في طي هذه المدحة بالأناة والتَّثبُّت تنزيهه وتبرئته ممَّا لعلَّه يسبق إلى الوهم أنَّه همَّ بامرأة العزيز همًّا يؤاخذ به، لأنَّه إذا صبر وتثبَّت فيما له ألَّا يصبر فيه، وهو الخروج مِن السِّجن، مع أن الدَّواعي متوافرة على الخروج منه، فلأن يصبر فيما عليه أن يصبر فيه مِن الهمِّ، أولى وأجدر)[2].

- وعن أمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- قالت: لما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخيير أزواجه بدأ بي، فقال: ((إنِّي ذاكر لك أمرًا، فلا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك))[3].

قال ابن حجر: (قوله: ((فلا عليك أن لا تعجلي)). أي: فلا بأس عليك في التَّأنِّي، وعدم العَجَلَة حتى تشاوري أبويك)[4].

- وعن سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه أنَّه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((التُّؤدة في كلِّ شيء خيرٌ إلَّا في عمل الآخرة))[5].

قال القاري: (التُّؤدة: بضمِّ التَّاء وفتح الهمزة، أي: التَّأنِّي، ((في كلِّ شيء))

---

(1) رواه البخاري (٤٦٩٤) ومسلم (١٥١) واللَّفظ للبخاري.
(2) ((محاسن التَّأويل)) (١٨٥/٦)، انظر: ((شرح النووي على مسلم)) (١٨٥/٢).
(3) رواه البخاري (٤٧٨٦)، ومسلم (١٤٧٥).
(4) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (٥٢١/٨).
(5) رواه أبو داود (٤٨١٠)، وأبو يعلى (١٢٣/٢)، (٧٩٢)، والحاكم (١٣٢/١)، والبيهقي (١٩٤/١٠) (٢٠٥٩٢). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووثق رواته ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (٢٢٩/٢)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)).

أي: مِن الأعمال. ((خيرٌ)) أي: مستحسن، ((إلَّا في عمل الآخرة)) أي: لأنَّ في تأخير الخيرات آفات. ورُوِي أنَّ أكثر صياح أهل النَّار مِن تسويف العمل. قال الطِّيبي: وذلك لأنَّ الأمور الدُّنيويَّة لا يعلم عواقبها في ابتدائها أنَّها محمودة العواقب حتى يتعجَّل فيها، أو مذمومة فيتأخر عنها، بخلاف الأمور الأخرويَّة؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ - ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾)[(١)].

أقوال السَّلف والعلماء في التَّأنِّي:

- كتب عمرو بن العاص إلى معاوية يعاتبه في التَّأنِّي، فكتب إليه معاوية: (أما بعد، فإنَّ التَّفهُّم في الخبر زيادة ورشد، وإنَّ الرَّاشد مَن رشد عن العَجَلَة، وإنَّ الخائب مَن خاب عن الأناة، وإنَّ المتثبِّت مصيب، أو كاد أن يكون مصيبًا، وإنَّ العَجِل مخطئٌ أو كاد أن يكون مخطئًا)[(٢)].

- وقال مالك: (كان يُقَال: التَّأنِّي مِن الله، والعَجَلَة مِن الشَّيطان، وما عَجِل امرؤٌ فأصاب، واتَّأد آخر فأخطأ، إلَّا كان الذي اتَّأد أصوب رأيًا، ولا عَجِل امرؤٌ فأخطأ، واتَّأد آخر فأخطأ، إلَّا كان الذي اتَّأد أيسر خطأً)[(٣)].

- وقال إبراهيم بن أدهم: (ذكروا الأناة في الأشياء كلِّها، فقال الأحنف: أمَّا أنا فإذا حضرت جنازة لم أتأنَّ، وإذا وجدت كفؤًا زوَّجت ولم أتأنَّ، وإذا حضرت الصَّلاة لم أتأنَّ)[(٤)].

---

(١) ((مرقاة المفاتيح)) (٨/٣١٦٤).
(٢) ((شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة)) للالكائي (٨/١٥٣٣).
(٣) ((المدخل إلى السنن الكبرى)) للبيهقي (١/٤٣٧).
(٤) ((شعب الإيمان)) للبيهقي (١١/٤٥٩ – برقم ٨٨٣١).

- وقال أبو عثمان بن الحداد: (مَن تأنَّى وتثبَّت تهيَّأ له مِن الصَّواب ما لا يتهيَّأ لصاحب البديهة)[1].

- أوصى مالك بن المنذر بن مالك بنيه، فقال: (يا بنيَّ! الزموا الأناة، واغتنموا الفرصة تظفروا)[2].

- وقال أبو حاتم: (الخائب مَن خاب عن الأناة، والعَجِل مخطئٌ أبدًا كما أن المتثبِّت مصيبٌ أبدًا)[3].

- وقال أيضًا: (إنَّ العاجل لا يكاد يلحق، كما أنَّ الرَّافق لا يكاد يُسْبَق، والسَّاكت لا يكاد يندم، ومَن نطق لا يكاد يسلم، وإن العَجِل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرِّب)[4].

فوائد التَّأنِّي:

١- دلالة على رجاحة العقل، ووفور الرَّزانة، وطمأنينة القلب.

٢- يعصم الإنسان مِن الضَّلال والخطأ.

قال ابن عثيمين: (الأناة: التَّأنِّي في الأمور وعدم التَّسرُّع، وما أكثر ما يهلك الإنسان ويزلُّ بسبب التَّعجُّل في الأمور، وسواءِ في نقل الأخبار، أو في الحكم على ما سمع، أو في غير ذلك. فمِن النَّاس -مثلًا- مَن يتخطَّف الأخبار بمجرَّد ما يسمع الخبر يحدِّث به، ينقله،.. ومِن النَّاس مَن يتسرَّع في الحكم، سمع عن شخص شيئًا مِن الأشياء، ويتأكَّد أنَّه قاله، أو أنَّه فعله ثمَّ

(١) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (٢/١١٢٧).
(٢) ((المجالسة وجواهر العلم)) للدينوري (٦/٣٠٦).
(٣) ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) (١/٢١٨).
(٤) ((المصدر السابق)) (١/٢١٦).

يتسرَّع في الحكم عليه، أنَّه أخطأ أو ضلَّ أو ما أشبه ذلك، وهذا غلط، التَّأنِّي في الأمور كلُّه خيرٌ)[١].

٣- التَّأنِّي كلُّه خيرٌ ومحمود العاقبة في الدُّنْيا والآخرة.

٤- صيانة للإنسان مِن الأخلاق المذمومة:

قال ابن القيِّم: (إذا انحرفت عن خُلُق الأناة والرِّفق انحرفت: إمَّا إلى عَجَلة وطيش وعنف، وإمَّا إلى تفريط وإضاعة، والرِّفق والأناة بينهما)[٢].

٥- سببٌ لنيل محبَّة الله ورضاه سبحانه:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأشجِّ عبد القيس: ((إنَّ فيك خصلتين يحبُّهما الله: الحِلْم، والأناة))[٣].

٦- صيانة الإنسان مِن كيد الشَّيطان وتسلُّطه عليه:

قال صلى الله عليه وسلم: ((التَّأنِّي مِن الله، والعَجَلَة مِن الشَّيطان))[٤].

قال الغزالي: (الأعمال ينبغي أن تكون بعد التَّبصرة والمعرفة، والتَّبصرة تحتاج إلى تأمُّل وتمهُّل، والعَجَلَة تمنع مِن ذلك، وعند الاستعجال يروِّج الشَّيطان شرَّه على الإنسان مِن حيث لا يدري)[٥].

---

(١) ((شرح رياض الصالحين)) (٣/٥٧٧- ٥٧٨).
(٢) ((مدارج السَّالكين)) (٢/٢٩٦).
(٣) رواه مسلم (٢٥).
(٤) رواه أبو يعلى (٧/٢٤٧) (٤٢٥٦)، والبيهقي (١٠/١٠٤) (٢٠٧٦٧)
قال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (٢/٣٥٩)، والهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (٨/٢٢): رجاله رجال الصحيح، وجوَّد إسناده ابن القيم في ((أعلام الموقعين)) (٢/١٢٠)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٣٠١١).
(٥) ((إحياء علوم الدين)) (٣/٣٣).

٧- التَّريُّث عند وصول الخبر إليه:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

صور التَّأنِّي:

التَّأنِّي مطلوبٌ في كثير من الأحوال والمواقف التي تمرُّ على الإنسان، ومِن هذه الأحوال التي يتطلَّب فيها التَّأنِّي:

١- عند الذهاب إلى الصَّلاة:

فعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: ((بينما نحن نصلِّي مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم إذ سمع جلبة الرِّجال، فلمَّا صلَّى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصَّلاة. قال: فلا تفعلوا إذا أتيتم الصَّلاة فعليكم بالسَّكينة، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا))[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((إذا سمعتم الإقامة، فامشوا إلى الصَّلاة وعليكم بالسَّكينة والوقار، ولا تسرعوا، فما أدركتم فصلُّوا، وما فاتكم فأتمُّوا))[٢].

ففي الحديثين نهي عن الاستعجال والإسراع لإدراك الصَّلاة، والأمر بالتَّأنِّي والسَّكينة في المجيء للصَّلاة والقيام لها[٣].

٢- التَّأنِّي في طلب العلم:

قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

---

(١) رواه البخاري (٦٣٥).

(٢) رواه البخاري (٦٣٦).

(٣) انظر: ((فتح الباري شرح صحيح البخاري))، لابن حجر (٢/١١٨)، ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري))، لبدر الدين العيني (٥/١٥٠).

قال ابن القيِّم في هذه الآية: (ومِن أسرارها -سورة القيامة-: أنَّها تضمَّنت التَّأنِّي والتَّثبُّت في تلقِّي العِلْم، وأن لا يحمل السَّامع شدَّة محبَّته وحرصه وطلبه على مبادرة المعلِّم بالأخذ قبل فراغه مِن كلامه، بل مِن آداب الرَّب التي أدب بها نبيَّه أَمْرُه بترك الاستعجال على تلقِّي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل مِن قراءته، ثمَّ يقرأه بعد فراغه عليه، فهكذا ينبغي لطالب العلم ولسامعه أن يصبر على معلِّمه حتى يقضي كلامه)[1].

٣- التَّأنِّي عند مواجهة العدو في ساحة القتال:

قال النُّعمان بن مقرن للمغيرة بن شعبة -رضي الله عنهم- في تأخير القتال يوم نهاوند: ((ربَّما أشهدك الله مثلها مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلم يُندِّمك، ولم يخزك، ولكني شهدت القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا لم يقاتل في أوَّل النَّهار، انتظر حتى تهبَّ الأرواح، وتحضر الصَّلوات))[2].

قال ابن حجر: (قوله: ((فلم يندِّمك)) أي: على التَّأنِّي والصَّبر حتى تزول الشَّمس)[3].

وقال الشَّافعي: (لا ينبغي أن يولِّي الإمام الغزو إلَّا ثقة في دينه، شجاعًا ببدنه، حسن الأناة، عاقلًا للحرب بصيرًا بها، غير عَجِلٍ ولا نَزِق، ويتقدَّم إليه أن لا يحمل المسلمين على مهلكة بحال)[4].

٤- التَّأنِّي في الإنكار في الأمور المحتملة:

فعن أبيٍّ بن كعب رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في قصَّة

---

(١) ((التبيان في أقسام القرآن)) (١/١٥٩).

(٢) رواه البخاري (٣١٦٠).

(٣) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (٦/٢٥٦).

(٤) ((السنن الكبرى)) للبيهقي (٩/٧٠).

موسى والخضر -عليهما السَّلام- وفيه-: ((فعمد الخضر إلى لوح مِن ألواح السَّفينة، فنزعه، فقال موسى: قومٌ حملونا بغير نَوْلٍ[١]، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟! قال: ألم أقل إنَّك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني مِن أمري عسرًا))[٢].

قال ابن حجر: (إنَّ الذي فعله الخضر ليس في شيء منه ما يناقض الشَّرع، فإنَّ نقض لوح مِن ألواح السَّفينة لدفع الظَّالم عن غصبها، ثمَّ إذا تركها أعيد اللَّوح- جائزٌ شرعًا وعقلًا، ولكن مبادرة موسى بالإنكار بحسب الظَّاهر، وقد وقع ذلك واضحًا في رواية أبي إسحاق التي أخرجها مسلم، ولفظه: فإذا جاء الذي يسخِّرها فوجدها منخرقة، تجاوزها فأصلحها، فيُستفاد منه وجوب التَّأنِّي عن الإنكار في المحتملات)[٣].

٥- التَّأنِّي في التَّحدُّث مع الآخرين:

عن أمِّ المؤمنين عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: ((إنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يحدِّث حديثًا لو عدَّه العاد لأحصاه))[٤]. وفي لفظ: ((إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يسرد الحديث كسردكم))[٥].

قال بدر الدِّين العيني: (... ((لم يكن يسرد...)). أي: لم يكن يتابع الحديث استعجالًا، أي: كان يتكلَّم بكلام متتابع مفهوم واضح على سبيل التَّأنِّي، لئلَّا يلتبس على المستمع)[٦].

---

(١) النول: الأجر. ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (٥/١٢٩).
(٢) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، واللَّفظ للبخاري.
(٣) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (١/٢٢٢).
(٤) رواه البخاري (٣٥٦٧)، ومسلم (٢٤٩٣).
(٥) رواه البخاري (٣٥٦٨)، ومسلم (٢٤٩٣).
(٦) ((عمدة القاري شرح صحيح البخاري)) (١٦/١١٥).

٦- عند الفصل في المنازعات وإنزال العقوبات:

ففي قصَّة أمير المؤمنين عمر في قضائه بين علي بن أبي طالب والعبَّاس -رضي الله عنهما- في فيء الرَّسول صلى الله عليه وسلم مِن بني النَّضير قال لهما عمر رضي الله عنه: (اتَّئدوا)(١).

قال ابن حجر: (قوله: ((اتَّئدوا)). المراد: التَّأنِّي والرَّزانة)(٢).

وقال أبو عثمان بن الحدَّاد: (القاضي شأنه الأناة [والتَّثبُّت]، ومَن تأنَّى وتثبَّت تهيَّأ له مِن الصَّواب ما لا يتهيَّأ لصاحب البديهة)(٣).

وقال مالك بن أنس: (العَجَلَة في الفتوى نوعٌ مِن الجهل والخُرْق، قال: وكان يُقَال: التَّأنِّي مِن الله، والعَجَلَة مِن الشَّيطان)(٤).

وقال الأصفهاني: (قال بعضهم: ينبغي للسُّلطان أن يؤخِّر العقوبة حتى ينقضي سلطان غضبه، ويعجِّل مكافأة المحسن، ويستعمل الأناة فيما يحدث، ففي تأخير العقوبة إمكان العفو إن أحبَّ ذلك، وفي تعجيل المكافأة بالإحْسَان مسارعة الأولياء إلى الطَّاعة)(٥).

أسباب عدم التَّأنِّي:

١- الغضب والحزن الشَّديد:

روى ابن عبَّاس عن أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب -رضي الله عنهم- في قصَّة اعتزال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم نساءه، وفيه: ((اعتزل النَّبيُّ صلى الله

---

(١) رواه البخاري (٤٠٣٣).
(٢) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (٩١/١).
(٣) ((جامع بيان العلم وفضله)) لابن عبد البر (١١٢٧/٢).
(٤) ((إعلام الموقعين)) لابن القيِّم (١٢٨/٢).
(٥) ((الذريعة إلى مكارم الشريعة)) (٢٤٢/١).

عليه وسلم أزواجه فقلت: خابت حفصة وخسرت... فخرجت فجئت إلى المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلًا، ثمَّ غلبني ما أجد، فجئت المشربة التي فيها النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر))[١].

قال ابن حجر: (الغضب والحزن يحمل الرَّجل الوقور على ترك التَّأنِّي المألوف منه؛ لقول عمر: ثم غلبني ما أجد. ثلاث مرَّات)[٢].

وقال ابن الجوزي: (أشدُّ النَّاس تفريطًا مَن عَمِل مبادرة في واقعة مِن غير تثبُّت ولا استشارة، خصوصًا فيما يوجبه الغضب، فإنَّه طلب الهلاك أو النَّدم العظيم. وكم مَن غَضبَ فقتل وضرب، ثمَّ لما سكن غضبه؛ بقي طول دهره في الحزن والبكاء والنَّدم! والغالب في القاتل أنَّه يقتل، فتفوته الدُّنْيا والآخرة)[٣].

١- استعجال نتائج الأمور:

العجلة طبيعة في الإنسان وهي صفة مذمومة، وهي من الشيطان، كما جاء في الحديث الذي تقدم ذكره.

قال الصنعاني: (العجلة هي السرعة في الشيء، وهي مذمومة فيما كان المطلوب فيه الأناة محمودة فيما يطلب تعجيله من المسارعة إلى الخيرات ونحوها، وقد يقال: لا منافاة بين الأناة، والمسارعة، فإن سارع بتؤدة وتأن فيتم له الأمران، والضابط أن خيار الأمور أوسطها)[٤].

---

(١) رواه البخاري (٥١٩١).

(٢) ((فتح الباري شرح صحيح البخاري)) (٩/٢٧٩)، والحديث أخرجه البخاري (٥١٩١).

(٣) ((صيد الخاطر)) (١/٣٨٥).

(٤) ((سبل السلام)) (٢/٦٨١).

٢- التَّفريط:

وذلك إذا فرَّط المرء فيما ينبغي عليه القيام به، فإنَّه يضطر للقيام به على وجه السُّرعة والعَجَلَة حتى يتدارك الأمر، وربما لا يحصل له مقصوده.

٣- إجابة داعي الشَّهوات:

وقد يكون في إجابته الهلاك، فكم من شهوة أورثت حزنًا وندامة.

٤- ترك استشارة ذوي الخبرة في أمور يجهلها:

وهذا الجهل يجعل الإنسان لا يحسن التَّعامل مع الأمور، فربَّما يَعْجَل فيما حقُّه التَّأنِّي، أو يتأنَّى فيما حقُّه التَّعجُّل، وهكذا.

الوسائل المعينة على اكتساب صفة التَّأنِّي:

١- الدُّعاء:

كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يدعو الله بأن يهديه إلى أحسن الأخلاق، فكان مِن دعائه: ((واهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرف عنِّي سيئها لا يصرف عنِّي سيئها إلَّا أنت))(١).

٢- النَّظر في عواقب الاستعجال:

قال أبو إسحاق القيرواني: (قال بعض الحكماء: إيَّاك والعَجَلَة؛ فإنَّ العرب كانت تكنِّيها أمَّ النَّدامة؛ لأنَّ صاحبها يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويعزم قبل أن يفكِّر، ويقطع قبل أن يقدِّر، ويحمد قبل أن يجرِّب، ويذمُّ قبل أن يخبر، ولن يصحب هذه الصِّفة أحدٌ إلَّا صحب النَّدامة، واعتزل السَّلامة)(٢).

---

(١) رواه مسلم (٧٧١).

(٢) ((زهر الآداب وثمر الألباب)) (٤/٩٤٢).

٣- معرفة معاني أسماء الله وصفاته:

فمِن أسمائه سبحانه: الحليم والرَّفيق، ومِن معانيهما: التَّأنِّي في الأمور، والتَّدرج فيها، ومن ذلك إمهال الكافرين والظَّالمين، إقامة للحجَّة وقطعًا للمحجة؛ ليهلك مَن هلك عن بينة، ويحيى مَن حيَّ عن بينة(١).

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١].

٤- قراءة سيرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم:

فنستفيد مِن سنَّته صلى الله عليه وسلم التَّأنِّي والصَّبر على الإيذاء، قال خباب بن الأرت رضي الله عنه: ((شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو متوسِّد بردة له في ظلِّ الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: كان الرَّجل فيمن قبلكم يُحْفر له في الأرض، فيُجْعَل فيه، فيُجَاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشَقُّ باثنتين، وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمَشَّط بأمشاط الحديد ما دون لحمه مِن عظم أو عصب، وما يصدُّه ذلك عن دينه، والله ليتمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الرَّاكب مِن صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلَّا الله، أو الذِّئب على غنمه، ولكنَّكم تستعجلون))(٢).

٥- قراءة سيرة السَّلف الصَّالح:

ففي سيرة سلفنا الصَّالح نماذج كثيرة تدلُّ على تحلِّيهم بخلق التَّأنِّي، والتَّريُّث في أمورهم، فقراءة سِيَرهم تعين على الاقتداء بهم، وانتهاج طريقهم.

---

(١) انظر: ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٦/٥٥٧)، ((صفات الله -عزَّ وجلَّ- الواردة في الكتاب والسنة)) لعلوي السقاف (١/١٣٩، ١٨٠).

(٢) رواه البخاري (٣٦١٢).

٦- استشارة أهل الصَّلاح والخبرة:

إذا أقدم الشَّخص على أمرٍ يجهله فعليه أن يستشير أهل الصَّلاح والخبرة ولا يتعجَّل في أمره، قال تعالى لنبيِّه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قال الماورديُّ: (الحزم لكلِّ ذي لبٍّ أن لا يبرم أمرًا ولا يمضي عزمًا إلَّا بمشورة ذي الرَّأي النَّاصح، ومطالعة ذي العقل الرَّاجح. فإنَّ الله تعالى أمر بالمشورة نبيَّه صلى الله عليه وسلم مع ما تكفَّل به مِن إرشاده، ووعد به مِن تأييده، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾.. وقال الحسن البصري -رحمه الله تعالى-: أمره بمشاورتهم ليستنَّ به المسلمون ويتَّبعه فيها المؤمنون، وإن كان عن مشورتهم غنيًّا)(١).

نماذج في التَّأنِّي:

- ### نماذج مِن تأنِّي الأنبياء والمرسلين عليهم السَّلام:

نبيُّ الله يوسف عليه السَّلام:

تأنَّى نبيُّ الله يوسف -عليه الصَّلاة والسَّلام- مِن الخروج مِن السِّجن حتى يتحقَّق الملك ورعيَّته براءة ساحته، ونزاهة عرضه، وامتنع عن المبادرة إلى الخروج ولم يستعجل في ذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠].

---

(١) ((أدب الدنيا والدين)) (١/٣٠٠).

قال ابن عطيَّة: (هذا الفعل مِن يوسف -عليه السَّلام- أناةً وصبرًا وطلبًا لبراءة السَّاحة)[(١)].

- **نماذج للتَّأنِّي مِن سير الصَّحابة رضي الله عنهم:**

تأنِّي أبي ذر الغفاري في قصَّة إسلامه:

قال ابن عبَّاس: ((لمَّا بلغ أبا ذر مبعث النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بمكَّة قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي، فاعلم لي علم هذا الرَّجل الذي يزعم أنَّه يأتيه الخبر مِن السَّماء، فاسمع مِن قوله ثمَّ ائتني، فانطلق الآخر حتى قدم مكَّة، وسمع مِن قوله، ثمَّ رجع إلى أبي ذر فقال: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلامًا ما هو بالشِّعر. فقال: ما شفيتني فيما أردت فتزوَّد وحمل شنَّة[(٢)] له، فيها ماء حتى قدم مكَّة، فأتى المسجد فالتمس النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه، حتى أدركه -يعني اللَّيل- فاضطجع، فرآه عليٌّ فعرف أنَّه غريب، فلمَّا رآه تبعه، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثمَّ احتمل قربته وزاده إلى المسجد، فظلَّ ذلك اليوم، ولا يرى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، حتى أمسى، فعاد إلى مضجعه، فمرَّ به عليٌّ، فقال: ما آن للرَّجل أن يعلم منزله؟ فأقامه، فذهب به معه، ولا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان يوم الثَّالث فعل مثل ذلك، فأقامه عليٌّ معه، ثمَّ قال له: ألا تحدِّثني؟ ما الذي أقدمك هذا البلد؟ قال: إن أعطيتني عهدًا وميثاقًا لترشدنِّي، فعلتُ، ففعل، فأخبره، فقال: فإنَّه حقٌّ وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا أصبحت فاتَّبعني، فإنِّي إن رأيت شيئًا أخاف عليك، قمت كأنِّي أُريق الماء، فإن مضيت فاتَّبعني حتى تدخل مدخلي، ففعل، فانطلق

---

(١) ((المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)) لابن عطية (٣/٢٥٢).

(٢) الشنة: الخلق من كل آنية صنعت من جلد. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٢٤١).

يقفوه، حتى دخل على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ودخل معه، فسمع مِن قوله، وأسلم مكانه))[١].

فنجد في هذه القصَّة أنَّ أبا ذرٍّ رضي الله عنه لم يظهر ما يريده حتى يتحصَّل على بغيته، وقد تأنَّى رضي الله عنه في البحث عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم والسُّؤال عنه حتى لا تعلم به قريش، وتثنيه عن هدفه الذي مِن أجله تحمَّل المشاق والمتاعب.

التَّأنِّي في واحة الشِّعر:

قال النَّابغة:

الرِّفقُ يُمْنٌ والأناةُ سعادةٌ ... فتأنَّ في رفقٍ تُلاقِ نجاحا[٢]

وقال الشَّاعر:

استأنِ تظفرْ في أمورِك كلِّها ... وإذا عزمتَ على الهوَى فتوكَّل[٣]

وقال زهير:

منَّا الأناةُ وبعضُ القوم يحسبُنا ... أنَّا بِطاءٌ وفي إبطائِنا سرعُ[٤]

وقال القطامي عمرو بن شييم:

قد يدركُ المتأنِّي بعضَ حاجتِه ... وقد يكونُ مع المستعجلِ الزَّللُ
وربَّما فات قومًا بعضُ أمرِهمُ ... مِن التَّأنِّي وكان الحزمُ لو عجلوا[٥]

---

(١) رواه مسلم (٢٤٧٤).
(٢) ((كتاب العين)) للخليل بن أحمد (٨/٤٠١).
(٣) ((تهذيب اللغة)) للأزهري (١٥/٣٩٨).
(٤) ((اللباب في علوم الكتاب)) لابن عادل (١٣/٢٤٨).
(٥) ((تاريخ الإسلام)) للذهبي (٧/١٣٧).

وقال عبد العزيز بن سليمان الأبرش:

تأنَّ في أمرِك وافهمْ عنِّي فليس شيءٌ يعدلُ التَّأنِّي
تأنَّ فيه ثمَّ قلْ فإنِّي أرجو لك الإرشادَ بالتَّأنِّي[١]

وقال الشَّاعر:

لا تعجلنَّ لأمرٍ أنت طالبُه فقلَّما يدركُ المطلوبَ ذو العَجلِ
فذو التَّأنِّي مصيبٌ في مقاصدِه وذو التَّعجلِ لا يخلو عن الزَّللِ[٢]

وقال العجاج:

أناة وحلمًا وانتظارًا بهم غدًا فما أنا بالواني[٣] ولا الضَّرِعِ[٤] الغمْرِ[٥]

وقال الشَّاعر:

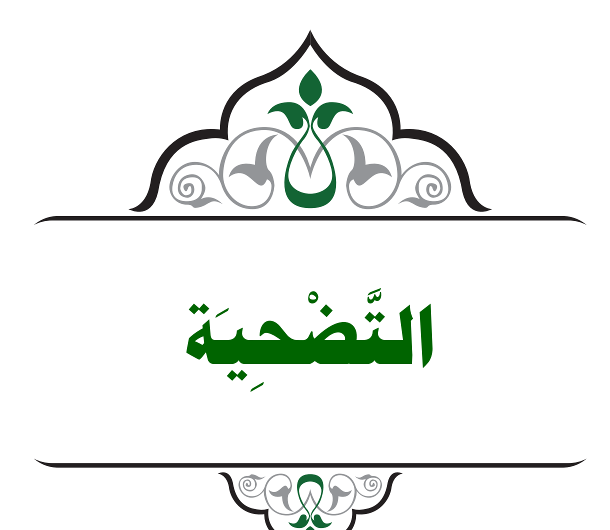
لا تعجلنَّ فربَّما عجِل الفتَى فيما يضرُّه
ولربَّما كرِه الفتَى أمرًا عواقبُه تسرُّه[٦]

وقال آخر:

انطقْ مصيبًا بخيرٍ لا تكنْ هذرًا عيَّابةً ناطقًا بالفحشِ والرِّيبِ
وكنْ رزينًا طويلَ الصَّمتِ ذا فكرٍ فإن نطقتَ فلا تُكثرْ مِن الخطبِ
ولا تُجبْ سائلًا مِن غيرِ ترويةٍ وبالذي عنه لم تسألْ فلا تجبِ[٧]

---

(١) ((روضة العقلاء ونزهة الفضلاء)) لأبي حاتم البستي (١/١٤٠).
(٢) ((بريقة محمودية)) لأبي سعيد الخادمي (٣/٦٥).
(٣) الواني: الضعيف البدن. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٤٠/٢٦١).
(٤) الضَّرِع: الصغير من كل شيء، أو الصغير السن. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢١/٤٠٨).
(٥) ((كتاب العين)) للخليل بن أحمد (٨/٤٠١)، والغمر: الجاهل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١/٢٤٢).
(٦) ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزآبادي (٤/٢٤).
(٧) ((حسن السمت في الصمت)) للسيوطي (١١٣-١١٤).



التَّضْحِيَة

التَّضْحية

معنى التَّضْحية لغةً واصطلاحًا:

- **معنى التَّضْحية لغةً:**

التضحية مصدر ضحَّى يقال: ضحَّى بنفسه أو بعمله أو بماله: بذله وتبرع به دون مقابل. وهي بهذا المعنى محدثة[١].

- **معنى التَّضْحية اصطلاحًا:**

هو بذل النَّفس أو الوقت أو المال لأجل غاية أسمى، ولأجل هدف أرجى، مع احتساب الأجر والثواب على ذلك عند الله عزَّ وجلَّ، والمرادف لهذا المعنى: الفداء. ومن معانيها: البذل والجهاد.

التَّرغيب في التَّضْحية:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

قال القاسمي: (أي: وليكرم ناسًا منكم بالشَّهادة، ليكونوا مثالًا لغيرهم في تَضْحية النَّفس شهادةً للحقِّ، واستماتةً دونه، وإعلاءً لكلمته)[٢].

- قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا

---

(١) ((المعجم الوسيط)) (٥٣٥/١)، ((المعجم الوجيز)) (ص ٣٧٧).
(٢) ((تفسير القاسمي)) (٤١٩/٢).

﴿٢٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوۡ يَتُوبَ
عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ
وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم
مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ فَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ
وَتَأۡسِرُونَ فَرِيقٗا ﴿٢٦﴾ وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ﴾ [الأحزاب: ٢١-٢٧].

(لما ذكر تعالى غزوة الأحزاب، وموقف المنافقين المذبذبين منها، بالقعود عن الجهاد، وتثبيط العزائم، أمر المؤمنين في هذه الآيات بالاقتداء بالرَّسول الكريم في صبره وثباته، وتَضْحِيته وجهاده)(١).

- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

(فيما ذكر إشارة إلى أنَّ المؤمن الذي يضَحِّي بنفسه في سبيل نصر دينه ودعوة ربِّه، هو من الشُّهداء الأبْرَار، الذين يظفرون بجنان الخلد، وهم أحياء، أرواحهم في حواصل طير خُضْر، تسرح في الجنَّة حيث شاءت)(٢).

ثانيًا: في السُّنَّة النبوية

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبي صلى الله عليه وسلم قال: ((انتدب الله لمن خرج في سبيله -لا يخرجه إلا إيمان بي، وتصديق برسلي- أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمة، أو أدخله الجنَّة، ولولا أن أشقَّ على أمَّتي، ما قعدت خلف سريَّة، ولوددت أنِّي أُقتل في سبيل الله ثم أحيا، ثم أُقتل ثم

(١) ((صفوة التفاسير)) للصابوني (٢/٤٧٦).
(٢) ((التفسير المنير)) لوهبة الزحيلي (٢/٤٠).

أحيا، ثم أُقتل))[١].

فبذل النَّفس والشَّهادة في سبيل الله هي ذروة التَّضْحية.

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنَّه قال: ((من خير معاش النَّاس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هَيْعَةً[٢]، أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانَّه، أو رجل في غنيمة في رأس شَعَفَةٍ من هذه الشَّعَف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصَّلاة، ويؤتي الزَّكاة، ويعبد ربَّه حتَّى يأتيه اليقين، ليس من النَّاس إلا في خير))[٣].

- وعنه أيضًا رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ((ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدًا بعفو إلَّا عزًّا. وما تواضع أحد لله إلَّا رفعه الله))[٤].

فلا خوف من التَّضْحية بالمال عند النَّفقة.

فوائد التَّضْحية:

١- في التَّضْحية نصرة للدِّين.

٢- في التَّضْحية تحقيق التَّكافل بين طبقات المجتمع.

٣- في التضحية تقوية الأمَّة، وتحقيق تماسكها، فيهابها أعداؤها، وتصبح قويَّة البنيان عزيزة الجانب.

---

(١) رواه البخاري (٣٦)، ومسلم (١٨٧٦).

(٢) الهيعة: الصوت تفزع منه وتخافه من عدو. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٢/٤١٧).

(٣) رواه مسلم (١٨٨٩).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨).

٤- في التَّضْحية تحقيق التَّراحم بين نسيج المجتمع الإسلامي كلِّه.

٥- في التَّضْحية تحقيق العزَّة.

٦- في التَّضْحية تحقيق السَّعادة.

أقسام التَّضْحية:

تنقسم التَّضْحية إلى قسمين:

١- التَّضْحية المحمودة (المشروعة):

ومنها:

- التَّضْحية بالنَّفس:

قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

(أخبر أنَّه مكروه للنُّفوس؛ لما فيه من التَّعب والمشقَّة، وحصول أنواع المخاوف، والتعرُّض للمتالف، ومع هذا، فهو خيرٌ محضٌ؛ لما فيه من الثَّواب العظيم، والتَّحرُّز من العقاب الأليم، والنَّصر على الأعداء والظَّفر بالغنائم، وغير ذلك، ممَّا هو مُرَبٍّ، على ما فيه من الكراهة)[1].

- التَّضْحية بالمال:

قال تعالى: ﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١٠-١١].

كذلك تدلُّ وقائع التَّربية النَّبويَّة على أنَّ الرَّسول صلى الله عليه وسلم كان

(١) ((تفسير السعدي)) (ص ٩٦).

يشترطها، ويجعلها شارة الإيمان وصدقه. والإنسان عنده ميل فطري إلى أن يضَحِّي بنفسه وماله في سبيل المثل الأعلى، بل إنَّ هذه التَّضْحية هي أمر راسخ في فطرة الإنسان، وجزء من وجوده، وما تعظيم الشَّجَاعَة عند البَشَر إلا تقديرًا لقيمة التَّضْحية في سبيل المثل الأعلى، ولذلك جُعل الجهاد أفضل الأعمال[١].

٢- التَّضْحية المذمومة (غير المشروعة):

التضحية المذمومة هي التَّضْحية في نصرة باطل، أو من أجل جاهلية، وكل تضحية لم تكن في سبيل الله أو ابتغاء مرضاته، أو تحقيقًا لمقصد شريف نبيل فهي مذمومة.

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: ((جاء رجل إلى النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! ما القتال في سبيل الله؟ فإنَّ أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حَمِيَّةً، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلَّا أنَّه كان قائمًا، فقال: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله عزَّ وجلَّ))[٢].

صور التَّضْحية:

١- التَّضْحية بالنَّفس وهي من أعلى مراتب التَّضْحية:

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنَّه قال: ((من خير معاش النَّاس لهم، رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هَيْعَةً، أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانَّه، أو رجل في غنيمة في رأس شَعَفَةٍ[٣] من هذه الشَّعَف، أو بطن واد من هذه

---

(١) ((أهداف التربية الإسلامية)) لماجد الكيلاني (ص ١٢٨).

(٢) رواه البخاري (١٢٣).

(٣) شعفة كل شيء: أعلاه. وشعفة الجبل: رأسه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٩/١٧٧).

الأودية، يقيم الصَّلاة، ويؤتي الزَّكاة، ويعبد ربَّه حتَّى يأتيه اليقين، ليس من النَّاس إلا في خير))(١).

٢- التَّضْحية بالمال:

كما في حديث عن ابن عباس، قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود النَّاس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كلِّ ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الرِّيح المرسلة))(٢).

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطَّاب، يقول: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدَّق، فوافق ذلك عندي مالًا، فقلت: اليوم أسبق أبا بكرٍ إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكرٍ بكلِّ ما عنده، فقال: يا أبا بكرٍ ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيءٍ أبدًا))(٣).

٣- التَّضْحية بالوقت لبذل العلم.

٤- التَّضْحية بنفع البدن.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٢٠)، ومسلم (٢٣٠٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) رواه مسلم (١٨٨٩).

(٣) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترِّمذي (٣٦٧٥)، والدارمي (١/٤٨٠) (١٦٦٠)، والبزار (١/٣٩٤) (٢٧٠)، والحاكم (١/٥٧٤)، والبيهقي (٤/١٨٠) (٨٠٢٦). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال التِّرمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه، وقال البزَّار: [فيه] هشام بن سعد، حدَّث عنه جماعة كثيرة مِن أهل العلم، ولم نر أحدًا توقَّف عن حديثه ولا اعتلَّ عليه بعلَّة توجب التَّوقُّف عن حديثه. وصحَّحه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٦/٢٣٦)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود))، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٩٩٦).

موانع اكتساب صفة التَّضحية:

١- عدم الإخلاص لله في العمل.

٢- حبُّ النَّفس والأثرة.

٣- الانغماس في اللَّهو والتَّرف والدعة.

٤- إساءة الظنِّ وعدم الثِّقة.

٥- ضعف الإيمان، والتَّفكير في الرِّزق الذي يقعده عن الإنفاق والتَّضْحية بالمال، والخوف من الموت الذي يقعده عن الجهاد والتَّضْحية بالنَّفس.

٦- التَّعلق بالدُّنيا وزينتها، والتثاقل إلى الأرض.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨-٣٩].

إنَّها ثَقْلة الأرض، وثَقْلة الخوف على الحياة، والخوف على المال، والخوف على اللَّذائذ والمصالح والمتاع.. ثَقْلة الرَّاحة والاستقرار.. ثَقْلة الذَّات الفانية، والأجل المحدود، والهدف القريب.. ثَقْلة اللَّحم والدَّم والتراب[1].

١٠- البخل، وعدم الإنفاق في سبيل الله:

قال تعالى: ﴿هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ

(١) ((في ظلال القرآن)) لسيد قطب (٣/١٦٥٥).

يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾ [الصف: ١٠-١١].

الوسائل المعينة على اكتساب صفة التَّضحية:

١- عدم الانكباب على الدُّنيا.

٢- التَّخلُّص من الرُّوح الانهزاميَّة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

٣- حبُّ الآخرين.

٤- التَّحلِّي بالشَّجاعة والإقدام.

٥- التَّحلِّي بعلو الهمَّة.

٦- التَّحلِّي بالكرم وعدم البخل.

٧- مصاحبة أهل الخير والرِّفعة، الذين ينفقون أموالهم ودماءهم في سبيل نصرة دين الله.

٨- اليقين الجازم بما أعدَّه الله لعباده المجاهدين في سبيله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال أيضًا: ﴿ وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴾ [آل عمران: ١٥٧].

٩- قصر الأمل في الدُّنيا.

١٠- القراءة في أخبار السَّلف الصالح، والنَّظر في تضحياتهم بالنَّفس والمال، لنستلهم العبرة من أخبارهم ونقتدي بهم.

نماذج للتَّضْحية:

• التَّضْحية في قصَّة الغلام المؤمن مع الملك في الأمم السَّابقة:

حيث ضَحَّى الغلام بنفسه من أجل أن يؤمن النَّاس.. فعن صهيب رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((... فقال للملك: إنَّك لست بقاتلي حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع النَّاس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم خذ سهمًا من كنانتي، ثم ضع السَّهم في كبد القوس، ثم قل: باسم الله، ربِّ الغلام. ثمَّ ارمني. فإنَّك إذا فعلت ذلك قتلتني. فجمع النَّاس في صعيد واحد، وصلبه على جذع، ثمَّ أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السَّهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، ربِّ الغلام. ثمَّ رماه، فوقع السَّهم في صُدْغه، فوضع يده في صُدْغه في موضع السَّهم، فمات. فقال النَّاس: آمنَّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام، آمنَّا بربِّ الغلام. فأتي الملك، فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟ قد -والله- نزل بك حذرك، قد آمن النَّاس. فأمر بالأُخْدُود في أفواه السِّكك، فخُدَّت، وأضرم النِّيران. وقال: من لم يرجع عن دينه فأَحْمُوه فيها. أو قيل له: اقتحم. ففعلوا، حتَّى جاءت امرأة ومعها صبي لها، فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أمَّه اصبري فإنَّك على الحقِّ))(١).

• نماذج من تَضْحية النَّبي صلى الله عليه وسلم:

الرَّسول صلى الله عليه وسلم قمة في الأخلاق الكريمة، وفي التَّضْحية والشَّجَاعَة، فكان أشجع النَّاس، وأقواهم قلبًا، وأثبتهم جنانًا، وقد كانت

---

(١) رواه مسلم (٣٠٠٥).

حياته كلُّها تَضْحية في سبيل الإسلام، فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ((لقد أوذيت في الله، وما يؤذى أحد، وأخفت في الله، وما يخاف أحد، ولقد أتت علي ثلاثون ليلة من بين يوم وليلة، وما لي ولبلال رضي الله عنه ما يأكله ذو كبد إلا ما يواري إبط بلال))[1].

• نماذج من تَضْحية الصَّحابة:

حياة الصَّحابة مليئة بمواقف التَّضْحية والفداء، والبذل والعطاء، من أجل نصرة دين الله، وهذه نماذج من تضحياتهم.

أبو بكر الصِّديق رضي الله عنه:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطب النَّبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إنَّ الله خيَّر عبدًا بين الدُّنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله. فبكى أبو بكر رضي الله عنه، فقلت في نفسي: ما يُبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خيَّر عبدًا بين الدُّنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا. قال: يا أبا بكر لا تبك، إنَّ أمَنَّ النَّاس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متَّخذًا خليلًا من أمتي، لاتَّخذت أبا بكر، ولكن أخوَّة الإسلام ومودَّته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر)[2].

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: سمعت عمر بن الخطَّاب، يقول: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نتصدَّق، فوافق ذلك عندي مالًا، فقلت:

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٢٣)، وأحمد (٣/١٢٠) (١٢٢٣٣)، وابن حبان (١٤/٥١٥) (٦٥٦٠). قال الترمذي: حسن غريب. وصححه ابن القيم في ((عدة الصابرين)) (١/٢٩٩)، والألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (٢٤٧٢).

(٢) رواه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢).

اليوم أسبق أبا بكرٍ إن سبقته يومًا، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكرٍ بكلِّ ما عنده، فقال: يا أبا بكرٍ ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسبقه إلى شيءٍ أبدًا))(١).

عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه:

عن ابن عمر رضي الله عنهما: (أنَّ عمر بن الخطَّاب أصاب أرضًا بخيبر، فأتى النَّبي صلى الله عليه وسلم يستأمره فيها، فقال: يا رسول الله، إنِّي أصبت أرضًا بخيبر، لم أصب مالًا قطُّ أنفس عندي منه، فما تأمر به؟ قال: إن شئت حبست أصلها وتصدَّقت بها. قال: فتصدَّق بها عمر: أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث، وتصدَّق بها في الفقراء، وفي القُرْبى، وفي الرِّقاب، وفي سبيل الله، وابن السَّبيل، والضَّيف، لا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف، ويطعم غير مُتَمَوِّلٍ) قال: فحدَّثت به ابن سيرين، فقال: غير مُتَأَثِّلٍ مالًا)(٢).

أبو طلحة رضي الله عنه:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: ((كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالًا من نخل، وكان أحبَّ أمواله إليه بَيْرَحَاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء

---

(١) رواه أبو داود (١٦٧٨)، والترِّمذي (٣٦٧٥)، والدارمي (١/٤٨٠) (١٦٦٠)، والبزار (١/٣٩٤) (٢٧٠)، والحاكم (١/٥٧٤)، والبيهقي (٤/١٨٠) (٨٠٢٦). والحديث سكت عنه أبو داود، وقال التِّرمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ولم يخرِّجاه، وقال البزَّار: [فيه] هشام بن سعد، حدَّث عنه جماعة كثيرة مِن أهل العلم، ولم نر أحدًا توقَّف عن حديثه ولا اعتلَّ عليه بعلَّة توجب التَّوقُّف عن حديثه. وصحَّحه النَّوويُّ في ((المجموع)) (٦/٢٣٦)، وحسَّنه الألباني في ((صحيح سنن أبي داود))، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٩٩٦).

(٢) رواه البخاري (٢٧٣٧)، ومسلم (١٦٣٢).

فيها طيِّب، قال أنس: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، قام أبو طلحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنَّ الله –تبارك وتعالى– يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، وإنَّ أحبَّ أموالي إليَّ بَيْرَحَاء، وإنَّها صدقة لله، أرجو برَّها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت، وإنِّي أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله. فقسَّمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمِّه)) تابعه رَوْحٌ. وقال يحيي بن يحيي وإسماعيل، عن مالك: ((رايح))(١).

الزُّبير بن العوَّام رضي الله عنه:

يقول ابن كثير، وهو يستعرض غزوة تبوك: (وقد كان فيمن شهد اليرموك: الزُّبير بن العوَّام، وهو أفضل من هناك من الصَّحابة، وكان من فرسان النَّاس وشجعانهم، فاجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذ، فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنَّكم لا تثبتون، فقالوا: بلى! فحمل وحملوا، فلمَّا واجهوا صفوف الرُّوم، أحجموا، وأقدم هو، فاخترق صفوف الرُّوم حتَّى خرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه. ثم جاؤا إليه مرَّة ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجُرِح يومئذ جرحين بين كتفيه، وفي رواية: جُرح)(٢).

وعن عروة (أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للزُّبير: ألا تشد فنشدَّ معك؟ قال: إنِّي إن شددت كذبتم. فقالوا: لا نفعل. فحمل عليهم حتى

---

(١) رواه البخاري (١٤٦١)، ومسلم (٩٩٨).
(٢) ((البداية والنهاية)) (٧/١٥).

شقَّ صفوفهم، فجاوزهم وما معه أحد، ثم رجع مقبلًا، فأخذوا بلجامه، فضربوه ضربتين: ضربة على عاتقه بينهما ضربة ضربها يوم بدر. قال عروة: فكنت أدخل أصابعي في تلك الضربات ألعب وأنا صغير. قال: وكان معه عبد الله بن الزُّبير، وهو ابن عشر سنين، فحمله على فرس ووكَّل به رجلًا)[١].

أنس بن النَّضر رضي الله عنه:

عن أنس رضي الله عنه أنَّ عمَّه غاب عن بدر، فقال: (غبت عن أوَّل قتال النَّبي صلى الله عليه وسلم، لئن أشهدني الله مع النَّبي صلى الله عليه وسلم ليرينَّ الله ما أجد، فلقي يوم أحد، فهزم النَّاس، فقال: اللهم إنِّي أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، فتقدَّم بسيفه فلقي سعد بن معاذ، فقال: أين يا سعد، إنِّي أجد ريح الجنَّة دون أحد، فمضى فقُتل، فما عُرف، حتى عرفته أخته بشامة أو ببنانه، وبه بضع وثمانون من طعنة وضربة ورمية بسهم)[٢].

حِكَمٌ وأقوالٌ في التضحية:

- (قال ابن المقفع: ابذل لصديقك دمك ومالك، ولمعرفتك رفدك[٣] ومحضرك، وللعامَّة بشرك وتحيَّتك، ولعدوك عدلك، وضنَّ بدينك وعرضك عن كلِّ أحد.

- قيل لعبد الله بن جعفر إنَّك لتبذل الكثير إذا سُئِلت، وتضيِّق في القليل إذا توَجَّرت؟ فقال: إنِّي أبذل مالي، وأضنُّ بعقلي[٤].

(١) ((سير أعلام النبلاء)) للذهبي (٣/٤٦).
(٢) ((صحيح البخاري)) (٥/٩٥).
(٣) الرفد، بالكسر: العطاء والصلة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٣/١٨١).
(٤) ((الكامل في اللغة والأدب)) للمبرد (٢/١٢٤).

التَّضْحية في واحة الشِّعر:

قال حسَّان شعرًا في الزُّبير -رضي الله عنهما-:

أقام على عهدِ النَّبي وهديه ... حواريُّه والقولُ بالفعلِ يعدلُ
أقام على منهاجِه وطريقِه ... يوالي وليَّ الحقِّ والحقُّ أعدلُ
هو الفارسُ المشهورُ والبطلُ الذي ... يصولُ، إذا ما كان يومٌ مُحَجَّلُ
إذا كشفت عن ساقِها الحربُ حَشَّها ... بأبيضَ سَبَّاقٍ إلى الموتِ يُرْقِلُ
وإن امرأً كانت صفيَّةُ أُمَّه ... ومِن أَسَدٍ في بيتِها لمرَفِّلُ
له مِن رسول الله قربى قريبة ... ومن نصرة الإسلامِ مجدٌ مؤثَّلُ
فكم كربةٍ ذبَّ الزُّبيرُ بسيفِه ... عن المصطفى، واللهُ يعطي فيجزلُ
فما مِثلُه فيهم، ولا كان قبلَه ... وليس يكونُ الدَّهرَ ما دام يَذْبُلُ
ثناؤُك خيرٌ مِن فعالِ معاشرٍ ... وفعلُك، يا ابنَ الهاشميَّةِ أفضلُ(١)

قال علي الجارم:

بيتٌ دعائمُه نبلٌ وتَضْحيةٌ ... إذا بنى النَّاسُ مِن صخرٍ ومن شِيدِ(٢)

قال إبراهيم طوقان:

ما نال مرتبةَ الخلودِ ... بغيرِ تَضْحيةٍ رضيَّة
عاشت نفوسٌ في سبيلِ ... بلادِها ذهبت ضحيَّة(٣)

وقال شوقي:

وما نيلُ المطالبِ بالتَّمني ... ولكن تُؤخَذُ الدُّنيا غلابَا

(١) ((ديوان حسان بن ثابت)) (١٩٩-٢٠٠).
(٢) ((ديوان علي الجارم)) (ص ١٢٩).
(٣) ((الأعمال الشعرية الكاملة)) لإبراهيم طوقان (١٤٣).

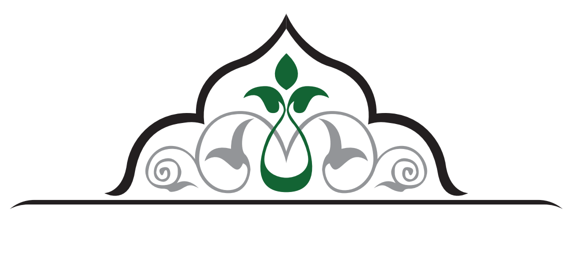
وما استعصى على قومٍ منالٌ إذا الإقدامُ كان لهم ركابَا[١]

وقال مسلم بن الوليد:

يجودُ بالنَّفسِ، إذ ضنَّ البخيلُ بها والجودُ بالنَّفسِ أقصى غايةِ الجودِ[٢]



(١) ((أحمد شوقي - الأعمال الشعرية الكاملة)) (١/ ٧١).
(٢) ((نشوار المحاضرة)) للتنوخي (٧/ ٢٠).



التَّعَاوُن



التَّعاون

معنى التَّعاون لغةً واصطلاحًا:

- **معنى التَّعاون لغةً:**

العون: الظَّهير على الأمر، وأعانه على الشَّيء: ساعده، واستعان فلانٌ فلانًا وبه: طلب منه العون. وتعاون القوم: أعان بعضهم بعضًا[(١)]. والمعْوانُ: الحَسَن المعُونة للنَّاس، أو كثيرها[(٢)].

- **معنى التَّعاون اصطلاحًا:**

التَّعاون هو: (المساعدة على الحقِّ ابتغاء الأجر مِن الله سبحانه)[(٣)].

أهمية التَّعاون:

لقد جعل الله سبحانه وتعالى التَّعاون فطرة جبلِّيَّة، جبلها في جميع مخلوقاته: صغيرها وكبيرها، ذكرها وأنثاها، إنسها وجنِّها، فلا يمكن لأيِّ مخلوق أن يواجه كلَّ أعباء الحياة ومتاعبها منفردًا، بل لابدَّ أن يحتاج إلى مَن يعاونه ويساعده؛ لذلك فالتَّعاون ضرورة مِن ضروريَّات الحياة، التي لا يمكن الاستغناء عنها، فبالتَّعاون يُنْجز العمل بأقصر وقت وأقلِّ جهد، ويصل إلى الغرض بسرعة وإتقان.

والملاحظ أنَّ نصوص الشَّريعة جاءت بالخطاب الجماعي، فقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وردت ٨٩ مرَّة، وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾ عشرين

---

(١) ((لسان العرب)) لابن منظور (١٣/٢٩٨)، ((مختار الصحاح)) للرازي (ص ٢٢٢)، ((المعجم الوسيط)) (٢/٦٣٨).

(٢) ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٥/٤٣١).

(٣) ((موسوعة الأخلاق)) لخالد الخراز (ص ٤٤١).

مرَّة، وقوله: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ خمس مرَّات، دلالة على أهمية الاجتماع والتَّعاون والتَّكامل.

وقد حثَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم على التَّعاون ودعا إليه، فقال: ((مَن كان معه فضل ظهر، فليعد به على مَن لا ظهر له، ومَن كان له فضلٌ مِن زاد فليعد به على مَن لا زاد له))[١].

وشبَّه المؤمنين في اتِّحادهم وتعاونهم بالجسد الواحد، فقال: ((مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد؛ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى))[٢].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا))[٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: ((يد الله مع الجماعة))[٤].

وحثَّ على معونة الخدم ومساعدتهم، فقال: ((ولا تكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلَّفتموهم فأعينوهم))[٥].

التَّرغيب في التَّعاون:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) رواه مسلم (١٧٢٨).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦) واللَّفظ له.

(٣) رواه البخاري (٤٨١) ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) رواه التِّرمذي (٢١٦٦) مِن حديث ابن عبَّاس رضي الله عنه. قال التِّرمذي: حسن غريب. وقال ابن العربي في ((عارضة الأحوذي)) (٢٨/٥): وإن لم يكن لفظه صحيحًا فإنَّ معناه صحيح. وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن التِّرمذي))، والوادعي في ((الصَّحيح المسند)). والحديث رُوِي مِن طرقٍ عن ابن عمر وعرفجة الأشجعي -رضي الله عنهم-.

(٥) رواه البخاري (٣١) ومسلم (١٦٦١).

وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ﴾ [العصر: ١-٣].

(أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثُّه عليه، ويرغِّبه فيه)(١).

(فهذه السُّورة العظيمة القصيرة، اشتملت على معان عظيمة، مِن جملتها: التَّواصي بالحقِّ، وهو التَّعاون على البرِّ والتَّقوى)(٢).

- وقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

قال ابن كثير: (يأمر تعالى عباده المؤمنين بالمعاونة على فعل الخيرات، وهو البرُّ، وترك المنكرات وهو التَّقوى، وينهاهم عن التَّناصر على الباطل، والتَّعاون على المآثم والمحارم)(٣).

وقال القرطبيُّ: (هو أمرٌ لجميع الخَلْق بالتَّعاون على البرِّ والتَّقوى، أي ليُعن بعضكم بعضًا، وتحاثُّوا على ما أمر الله تعالى واعملوا به، وانتهوا عمَّا نهى الله عنه وامتنعوا منه، وهذا موافقٌ لما رُوِي عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: ((الدَّالُّ على الخير كفاعله))(٤)... وقال الماورديُّ: ندب الله سبحانه

---

(١) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) للسعدي (٩٣٤/١).

(٢) ((مجموع فتاوى ومقالات متنوعة)) لابن باز (٨٧/٥).

(٣) ((تفسير القرآن العظيم)) (١٢/٢).

(٤) رواه الترِّمذي (٢٦٧٠)، والضياء في ((الأحاديث المختارة)) (١٨٤/٦) (٢١٩٣) مِن حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: ((أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم رجل يستحمله، فلم يجد عنده ما يتحمَّله، فدلَّه على آخر فحمله، فأتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره، فقال: الدَّال على الخير كفاعله)). قال الترِّمذي: غريب مِن هذا الوجه وقال الألباني في ((صحيح سنن الترِّمذي)): حسن صحيح. ورواه البزار كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (١٤٠/٣)، وأبو يعلى في ((المسند)) (٢٧٥/٧) (٤٢٩٦)، والمنذري في ((التَّرغيب والتَّرهيب)) (٦٩/١) =

إلى التَّعاون بالبرِّ، وقرنه بالتَّقوى له؛ لأنَّ في التَّقوى رضا الله تعالى، وفي البرِّ رضا النَّاس، ومَن جمع بين رضا الله تعالى ورضا النَّاس فقد تمَّت سعادته، وعمَّت نعمته)[١].

وقال ابن باز: (والمعنى: احذروا مغبَّة التَّعاون على الإثم والعدوان، وترك التَّعاون على البرِّ والتَّقوى، ومِن العاقبة في ذلك: شدَّة العقاب لمن خالف أمره، وارتكب نهيه وتعدَّى حدوده)[٢].

- وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴾ [آل عمران:١٠٣].

قال أبو جعفر الطَّبري: (يعني بذلك جلَّ ثناؤه: وتعلَّقوا بأسباب الله جميعًا. يريد بذلك -تعالى ذكره-: وتمسَّكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم، مِن الألفة والاجتماع على كلمة الحقِّ، والتَّسليم لأمر الله)[٣].

وقال السعدي: (فإنَّ في اجتماع المسلمين على دينهم، وائتلاف قلوبهم

= مِن حديث أنس رضي الله عنه. بلفظ: ((الدَّال على الخير كفاعله، والله يحبُّ إغاثة اللَّهفان)). قال المنذري: رواه البزَّار مِن رواية زياد بن عبد الله النُّميري وقد وُثِّق وله شواهد. ورواه أبو يعلى كذلك، وصحَّحه الألباني في ((سلسلة الأحاديث الصَّحيحة)) (١٦٦٠). والحديث رُوِي مِن طرق عن أبي مسعود البدري، وابن مسعود، وسهل بن سعد، وبريدة بن الحصيب، وأنس بن مالك، وابن عبَّاس، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم.

(١) ((الجامع لأحكام القرآن)) (٦/٤٦-٤٧).

(٢) ((مجموع فتاوى ومقالات متنوعة)) (٥/٩٣).

(٣) ((جامع البيان في تأويل القرآن)) (٥/٦٤٣).

يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكَّنون مِن كلِّ أمر مِن الأمور، ويحصل لهم مِن المصالح التي تتوقَّف على الائتلاف ما لا يمكن عدُّها، مِن التَّعاون على البرِّ والتَّقوى)[1].

- وقوله: ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي﴾ [طه: ٢٩-٣٢].

قال مقاتل بن سليمان: (﴿ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي﴾ يقول: اشدد به ظهري، وليكون عونًا لي، وأشركه في أمري الذي أمرتني به، يتَّعظون لأمرنا ونتعاون كلانا جميعًا)[2].

وقال أبو جعفر الطَّبري: (قوِّ ظهري، وأعنِّي به)[3].

وقال السعدي: (عَلِم عليه الصَّلاة والسَّلام أنَّ مدار العبادات كلِّها والدِّين على ذكر الله، فسأل اللهَ أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البرِّ والتَّقوى، فيكثر منهما ذكر الله مِن التَّسبيح والتَّهليل وغيره مِن أنواع العبادات)[4].

وقال المراغي: (أي: أحكم به قوَّتي، واجعله شريكي في أمر الرِّسالة حتى نتعاون على أدائها على الوجه الذي يؤدِّي إلى أحسن الغايات، ويوصل إلى الغرض على أجمل السُّبل)[5].

(١) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) (ص ١٤١).
(٢) ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (٣/٢٦).
(٣) ((جامع البيان في تأويل القرآن)) (١٦/٥٥).
(٤) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) (ص ٥٠٤).
(٥) ((تفسير المراغي)) (١٦/١٠٧).

- **ثانيًا: في السُّنَّة النَّبويَّة**

- قال النَّبيُّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: ((المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا))[١].

قال ابن بطَّال: (تعاون المؤمنين بعضهم بعضًا في أمور الدُّنْيا والآخرة مندوبٌ إليه بهذا الحديث)[٢].

وقال أبو الفرج ابن الجوزي: (ظاهره الإخبار، ومعناه الأمر، وهو تحريضٌ على التَّعاون)[٣].

- وعن ابن عمر رضي الله عنه، أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: ((المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه، ومَن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته، ومَن فرَّج عن مسلم كربةً، فرج الله عنه كربةً مِن كربات يوم القيامة، ومَن ستر مسلمًا، ستره الله يوم القيامة))[٤].

قال ابن بطَّال في شرح هذا الحديث: (... وباقي الحديث حضٌّ على التَّعاون، وحسن التَّعاشر، والألفة، والسِّتر على المؤمن، وترك التَّسمع به، والإشهار لذنوبه)[٥].

وقال ابن حجر[٦] والعيني[٧]: (في الحديث حضٌّ على التَّعاون، وحسن التَّعاشر والألفة).

---

(١) رواه البخاري (٤٨١) و مسلم (٢٥٨٥).
(٢) ((شرح صحيح البخاري)) (٩/٢٢٧).
(٣) ((كشف المشكل مِن حديث الصَّحيحين)) (١/٤٠٥).
(٤) رواه البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠).
(٥) ((شرح صحيح البخاري)) (٦/٥٧١).
(٦) ((فتح الباري)) لابن حجر (٥/٩٧).
(٧) ((عمدة القاري)) (١٢/٢٨٩).

- وعن أنس رضي الله عنه، قال: قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: ((انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا))، قيل: يا رسول الله، هذا نصرته مظلومًا، فكيف ننصره ظالمًا؟ قال: ((تأخذ فوق يده))(١).

قال ابن بطَّال: (والنُّصرة عند العرب: الإعانة والتَّأييد، وقد فسَّره رسول الله أنَّ نصر الظالم منعه مِن الظُّلم؛ لأنَّه إذا تركته على ظلمه ولم تكفه عنه أدَّاه ذلك إلى أن يُقْتَصَّ منه؛ فمنعك له مما يوجب عليه القصاص نصره، وهذا يدلُّ مِن باب الحكم للشَّيء، وتسميته بما يؤول إليه...)(٢).

وقال العيني: (النُّصرة تستلزم الإعانة)(٣).

- وعن أبي عبد الرَّحمن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن جهَّز غازيًا في سبيل الله فقد غزا، ومَن خلَّف غازيًا في أهله بخيرٍ فقد غزا))(٤).

(قال ابن بطَّال: قال الطَّبري: وفيه مِن الفقه أنَّ كلَّ مَن أعان مؤمنًا على عمل برٍّ فللمُعِين عليه أجر مثل العامل، وإذا أخبر الرَّسول أنَّ مَن جهَّز غازيًا فقد غزا، فكذلك مَن فطَّر صائمًا أو قوَّاه على صومه، وكذلك مَن أعان حاجًّا أو معتمرًا بما يتقوى به على حجِّه أو عمرته حتى يأتي ذلك على تمامه فله مثل أجره. ومَن أعان فإنَّما يجيء مِن حقوق الله بنفسه أو بماله حتى يغلبه على الباطل بمعونة، فله مثل أجر القائم، ثمَّ كذلك سائر أعمال البرِّ، وإذا كان ذلك بحكم المعونة على أعمال البرِّ فمثله المعونة على معاصي الله وما يكرهه

(١) رواه البخاري (٢٤٤٤).
(٢) ((شرح صحيح البخاري)) (٦/٥٧٢).
(٣) ((عمدة القاري)) (١٢/٢٨٩).
(٤) رواه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥) واللَّفظ له.

الله، للمعين عليها مِن الوزر والإثم مثل ما لعاملها)[١].

وقال ابن عثيمين: (هذا مِن التَّعاون على البرِّ والتَّقوى، فإذا جهَّز الإنسان غازيًا، يعني براحلته ومتاعه وسلاحه، إذا جهَّزه بذلك فقد غزا، أي كُتِب له أجر الغازي؛ لأنَّه أعانه على الخير. وكذلك مَن خَلَفَه في أهله بخير فقد غزا، يعني لو أنَّ الغازي أراد أن يغزو ولكنَّه أُشْكِل عليه أهله من يكون عند حاجاتهم، فانتدب رجلًا مِن المسلمين وقال: اخلفني في أهلي بخير، فإنَّ هذا الذي خلفه يكون له أجر الغازي؛ لأنَّه أعانه)[٢].

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن نفَّس عن مؤمن كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيا نفَّس الله عنه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يوم القيامة، ومَن يسَّر على معسر، يسَّر الله عليه في الدُّنْيا والآخرة، ومَن ستر مسلمًا ستره الله في الدُّنْيا والآخرة. والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...))[٣].

قال ابن دقيق العيد: (هذا الحديث عظيم جامع لأنواعٍ مِن العلوم والقواعد والآداب، فيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما يتيسَّر مِن عِلْم أو مال أو معاونة أو إشارة بمصلحة أو نصيحة أو غير ذلك)[٤].

وقال ابن حجر (في الحديث حضٌّ على التَّعاون وحسن التَّعاشر والألفة)[٥].

وقال النَّوويُّ في تعليقه على حديث: ((مثل المؤمنين في توادهم...)):

(١) ((عمدة القاري)) للعيني (١٢/٢٨٩).
(٢) ((شرح رياض الصالحين)) (٢/٣٧٤).
(٣) رواه مسلم (٢٦٩٩).
(٤) ((شرح الأربعين النووية)) (١/١١٩).
(٥) ((فتح الباري)) (٥/٩٧).

(صريحٌ في تعظيم حقوق المسلمين بعضهم بعضًا، وحثِّهم على التَّراحم والملاطفة والتَّعاضد في غير إثمٍ ولا مكروهٍ)[١].

أقوال العلماء في التَّعاون:

- قال عطاء بن أبي رباح: (تفقَّدوا إخوانكم بعد ثلاث، فإن كانوا مرضى فعودوهم، أو مشاغيل فأعينوهم، أو نسوا فذكِّروهم)[٢].

- وقال ابن تيمية: (حياة بني آدم وعيشهم في الدُّنْيا لا يتم إلَّا بمعاونة بعضهم لبعضٍ في الأقوال أخبارها وغير أخبارها وفي الأعمال أيضًا)[٣].

- وقال أبو حمزة الشَّيباني لمن سأله عن الإخوان في الله مَن هم؟ قال: (هم العاملون بطاعة الله عزَّ وجلَّ المتعاونون على أمر الله عزَّ وجلَّ، وإن تفرقت دورهم وأبدانهم)[٤].

- وقال أبو الحسن العامري: (التَّعاون على البرِّ داعية لاتِّفاق الآراء، واتِّفاق الآراء مجلبة لإيجاد المراد، مكسبة للوداد)[٥].

فوائد التَّعاون:

مِن فوائد التَّعاون:

١- استفادة كلِّ فرد مِن خبرات وتجارب الآخرين في شتى مناحي الحياة.

٢- إظهار القوَّة والتَّماسك.

---

(١) ((شرح النووي على مسلم)) (٨/٣٩٥).
(٢) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزَّالي (٢/١٧٦).
(٣) ((الفتاوى الكبرى)) (٦/٣٦٤).
(٤) ((الإخوان)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ٩٩).
(٥) ((البصائر والذخائر)) لأبي حيان التَّوحيدي (٩/١٤٨).

٣- تنظيم الوقت وتوفير الجهد.

٤- ثمرة مِن ثمرات الأخوَّة الإسلاميَّة.

٥- رفع الظُّلم عمَّن وقع عليه.

٦- حماية للفرد.

٧- تقاسم الحِمْل وتخفيف العبء.

٨- سهولة التَّصدِّي لأي أخطار تواجه الإنسان ممَّن حوله.

٩- سهولة إنجاز الأعمال الكبيرة التي لا يقدر عليها الأفراد.

١٠- القضاء على الأنانية وحبِّ الذَّات.

١١- مِن أهم ركائز النَّجاح والتَّفوُّق.

١٢- مِن ثمار الإيمان.

١٣- سبب نيل تأييد الله.

١٤- سبب نيل محبَّة الله ورضاه.

١٥- يجعل الفرد يشعر بالسَّعادة.

١٦- يزيل الضَّغائن والحقد والحسد مِن القلوب.

١٧- يساعد الفرد على بذل المزيد مِن الجهد والقوَّة.

١٨- يساعد على سرعة التَّنفيذ.

١٩- يسرِّع مِن عجلة التَّطوُّر العلمي والتَّقدُّم التَّقني.

٢٠- يولد سلامة الصدر ويكسب حبَّ الخير للآخرين.

٢١- يؤدِّي بالفرد إلى الإتقان في العمل.

٢٢- يولِّد عند الفرد الشُّعور بالقوَّة.

٢٣- يجدد طاقة الفرد وينشِّطها.

٢٤- يسهِّل العمل وييسِّره.

٢٥- يحقِّق أكبر الاستثمارات.

٢٦- يحدُّ مِن الازدواجيَّة في العمل.

٢٧- يتبيَّن للفرد ما يمتلك مِن طاقة وخبرات وقدرات.

٢٨- استغلال الملَكَات والطَّاقات المهدرة الاستغلال المناسب لما فيه مصلحة الفرد والمجتمع.

أقسام التَّعاون:

ينقسم التَّعاون إلى قسمين:

١- تعاون على البرِّ والتَّقوى.

٢- تعاون على الإثم والعدوان.

قال ابن تيمية: (فإنَّ التَّعاون نوعان: الأوَّل: تعاونٌ على البرِّ والتَّقوى: مِن الجهاد وإقامة الحدود، واستيفاء الحقوق، وإعطاء المستحقِّين؛ فهذا ممَّا أمر الله به ورسوله. ومَن أمسك عنه خشية أن يكون مِن أعوان الظَّلمة فقد ترك فرضًا على الأعيان، أو على الكفاية متوهِّمًا أنَّه متورِّعٌ. وما أكثر ما يشتبه الجبن والفشل بالورع؛ إذ كلٌّ منهما كفٌّ وإمساكٌ.

والثَّاني: تعاونٌ على الإثم والعدوان، كالإعانة على دمٍ معصومٍ، أو أخذ مالٍ

معصومٍ، أو ضرب مَن لا يستحقُّ الضَّرب، ونحو ذلك؛ فهذا الذي حرَّمه الله ورسوله. نعم، إذا كانت الأموال قد أُخِذَت بغير حقٍّ، وقد تعذَّر ردُّها إلى أصحابها، ككثيرٍ مِن الأموال السُّلطانيَّة؛ فالإعانة على صرف هذه الأموال في مصالح المسلمين كسداد الثُّغور، ونفقة المقاتلة، ونحو ذلك: مِن الإعانة على البرِّ والتَّقوى)[1].

آثار التَّعاون على الإثم والعدوان[2]:

١- تقلب نظام المجتمع وتساعد على فساد الذِّمم.

٢- تفتح أبواب الشَّرِّ وتطمس معالم الحقِّ.

٣- تنبئ عن خسَّة صاحبها ودناءة نفسه.

٤- دليل كامل على ضعف الإيمان وقلَّة المروءة.

٥- تساعد على الطغيان.

٦- إذا تحقَّقت في مجتمع كانت سببًا في خرابه.

٧- تضيع الحقوق، وتصل لغير أهلها ومستحقيها

صورٌ مِن التَّعاون:

للتَّعاون صورٌ كثيرةٌ نذكر منها ما يلي:

- التَّعاون على تجهيز الغازي.
- التَّعاون على دفع الظُّلم.
- التَّعاون في الثَّبات على الحقِّ والتمسُّك به.

(١) ((السياسة الشَّرعية)) (ص ٤٠).
(٢) ((نضرة النعيم)) (٩/٤٢٠٩).

- التَّعاون في الدَّعوة إلى الله.
- التَّعاون في تزويج العُزَّاب.
- التَّعاون في طلب العِلْم والتَّفقُّه في الدِّين.
- التَّعاون لتفريج كربات المهمومين وسدِّ حاجات المعوزين.
- التَّعاون مع الأمير الصَّالح، وتقديم النُّصح له ومساعدته على القيام بواجباته.
- تقديم النَّصيحة لمن يحتاجها.
- معاونة الخدم.
- التَّعاون على الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر.
- التَّعاون في جمع التَّبرُّعات والصَّدقات والزكاوات وتوزيعها على مستحقِّيها.
- التَّعاون على حلِّ الخلافات والنِّزاعات التي تقع في وسط المجتمع المسلم.
- التَّعاون في إقامة الحدود وحفظ أمن البلاد.

موانع اكتساب التَّعاون:

١- التَّعصُّب والحزبيَّة.

٢- اتِّباع الأوهام والشُّكوك في مدى جدوى هذا التعاون والاستفادة منه.

٣- الأنانيَّة، وعدم حبِّ الخير للآخرين.

٤- تعذُّر الفرد بانشغاله وكثرة أعماله.

٥- تنافس الأفراد.

٦- محبة الصَّدارة والزَّعامة وغيرها مِن حظوظ النَّفس.

٧- الحسد للآخرين.

٨- سوء الظَّن بالآخرين.

٩- عدم التَّعوُّد على التَّعاون.

١٠- الكبر على الآخرين، وتوهُّم الفرد أنَّه أعظم مِن غيره.

١١- الكَسَل.

١٢- النَّظر في التَّجارب الفاشلة لبعض حالات التَّعاون الشَّاذَّة.

الأسباب المعينة على اكتساب التَّعاون[1]:

هناك العديد مِن الطُّرق والسُّبل التي تعمل على تقوية التَّعاون وتثبيته بين المؤمنين، ومن ذلك:

١- التَّعارف.

٢- معرفة المسلم لحقوق المسلم عليه.

٣- احتساب الأجر.

٤- تنمية الرُّوح الجماعيَّة.

٥- فقه الواقع.

٦- تطهير القلب مِن الأمراض.

(١) ((الرائد دروس في التربية والدعوة)) لمازن بن عبد الكريم الفريح (١/٢٢٣-٢٢٥) بتصرُّف.

نماذج للتَّعاون:

- **نماذج تطبيقيَّة في التعاون من حياة الأنبياء والمرسلين:**

- أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السَّلام ببناء الكعبة، فقام إبراهيم عليه السَّلام استجابة لأمر الله، وطلب مِن ابنه إسماعيل أن يساعده على تنفيذ هذا الأمر الإلهي، ويعينه في بناء الكعبة، فقال له: ((يا إسماعيل، إنَّ الله أمرني بأمرٍ، قال: فاصنع ما أمرك ربُّك، قال: وتعينني؟ قال: وأعينك، قال: فإنَّ الله أمرني أن أبني ها هنا بيتًا، وأشار إلى أكمةٍ[1] مرتفعةٍ على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد مِن البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء، جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه، وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال: فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾))[2].

- عندما أرسل الله سبحانه وتعالى موسى عليه السَّلام إلى فرعون وكلَّفه بأن يدعو فرعون إلى عبادة الله وحده، طلب موسى عليه السَّلام مِن ربِّه سبحانه وتعالى المعينَ والمساعدَ على هذا الأمر العظيم، فطلب منه أن يجعل له أخاه هارون معاونًا ومساعدًا في دعوته فرعون، فقال: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٢٩-٣٢] فقال الله له: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، وجعل هارون معاونًا ومساعدًا

(١) الأكمة: الموضع الذي يكون أشد ارتفاعا مما حوله وهو غليظ لا يبلغ أن يكون حجرا. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٢٢٣/٣١).

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٤).

لموسى عليه السَّلام في دعوته إلى الله، وآتاه النُّبوَّة استجابة لدعوة موسى[١].

نماذج تطبيقيَّة مِن الأمم السَّابقة في التَّعاون:

• التَّعاون بين ذي القرنين وأصحاب السَّدِّ:

(لقد مكَّن الله عزَّ وجلَّ لذي القرنين في الأرض، وآتاه مِن كلِّ شيء سببًا، فتوفَّرت القدرة والسُّلطة، وتهيَّأت أمامه أسباب القوَّة والنُّفُوذ التي لم تتوفَّر لكثير غيره. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف:٨٣-٨٤]، ومع ذلك لم يستغن ذو القرنين عن معونة الآخرين حينما أراد أن يقوم بعمل كبير، وإنجاز عظيم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٣-٩٤]، فصارحهم ذو القرنين بأن مثل هذا العمل الضَّخم يحتاج إلى التَّعاون، ولا يتمُّ دونه؛ فقال: ﴿مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥].. الآيات، فماذا كانت نتيجة هذا التَّعاون العظيم؟ كانت نتيجته إتمام عمل عظيم، سدٌّ منيع، لا يستطيع مهاجموه أن يعلو ظهره، ولا أن يحدثوا فيه خَرْقًا.. والدَّرس الذي نخرج به أنَّ التَّعاون إذا أخلص له أهلوه، وبذلوا فيه بصدقٍ ما استطاعوا حقق لهم مِن النتائج ما يكفي ويشفي)[٢].

• نماذج تطبيقية مِن حياة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في التَّعاون:

- كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يسعى لقضاء حوائج المسلمين، ويحبُّ

---

(١) انظر: ((جامع البيان)) للطبري (١٨/٣٠٠)، ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (٥/٨٣)، ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (١١/١٩٢)..

(٢) ((الرَّائد دروس في التَّربية والدَّعوة))، لمازن عبد الكريم الفريح (١/٢٢٨-٢٢٩).

إعانتهم، والوقوف معهم فيما يلمُّ بهم مِن نوازل، وكان مجبولًا على ذلك مِن صغره وقبل بعثته، وقد بيَّنت ذلك أمُّنا خديجة رضي الله عنها عندما كانت تخفِّف مِن روع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عند عودته مِن غار حراء بعد نزول الوحي عليه، وكان فزعًا، فقالت له: (كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضَّيف، وتعين على نوائب الحقِّ)[١].

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ((كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يكون في مَهْنة أهله، فإذا حضرت الصَّلاة قام إلى الصَّلاة))[٢].

- وعن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: ((كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ينقل التُّراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه[٣] أو أغبر بطنه يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدَّقنا ولا صلَّينا
فأنزلن سكينة علينا ... وثبِّت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع بها صوته: أبينا أبينا))[٤].

- **نماذج تطبيقيَّة مِن حياة الصَّحابة في التَّعاون:**

كان الصَّحابة رضوان الله عليهم مثالًا يُحْتَذى بهم في التَّعاون، وكانوا في ذلك المثل الأسمى، فكانوا كخليَّة النَّحل في تكاتفها وتعاونها، وكالجسد الواحد

(١) رواه البخاري (٣) و مسلم (١٦٠)، واللَّفظ للبخاري.
(٢) رواه البخاري (٦٠٣٩).
(٣) أغمر بطنه: أي وارى التراب جلده وستره. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٣/٢٦٤).
(٤) رواه البخاري (٤١٠٤) ومسلم (١٨٠٣)، واللَّفظ للبخاري.

إذا اشتكى منهم عضو تداعى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى، و(في الوقت الذي كان فيه أبو عبيدة بن الجرَّاح وسعد بن أبي وقَّاص، وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص يفتحون مصر والشَّام والعراق، كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي يسوسون النَّاس، ويرعون شؤونهم، وكان معاذ بن جبل وابن عبَّاس وابن عمر يعلِّمون النَّاس، ويفتونهم ويربُّونهم، وكان أبو هريرة وأنس وعائشة يحفظون الحديث ويروونه، وكان أبو ذرٍّ وأبو الدَّرداء يعظون النَّاس والحكَّام وينصحونهم، فتعاونوا ولم يتعايبوا.. وتناصروا ولم يتدابروا)(١).

ونقف هنا وقفات مع نماذج مِن تعاون الصَّحابة رضي الله عنهم.

تعاون الصَّحابة رضي الله عنهم في حفر الخندق:

- نقل لنا الصَّحابيُّ الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه صورة مِن تعاون الصَّحابة وتكاتفهم في حفر الخندق، فيقول: ((جعل المهاجرون والأنصار يحفرون الخندق حول المدينة، وينقلون التُّراب على متونهم، ويقولون:

نحن الذين بايعوا محمَّدًا على الإسلام ما بقينا أبدًا

والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يجيبهم ويقول:

اللَّهمَّ إنَّه لا خير إلَّا خير الآخرةْ فبارك في الأنصار والمهاجرةْ))(٢)

تعاون أبي بكر وأهل بيته مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم في هجرته:

- جهَّز أبو بكر راحلتين عندما أعلمه النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بالهجرة، وخاطر بنفسه وهاجر مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، وعندما وصلا غار ثور

(١) ((التيه والمخرج)) لعدنان عرعور (٥٣-٥٤).
(٢) رواه البخاري (٢٨٣٥).

دخل أبو بكر أوَّلًا ليستبرأ الغار للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كي لا يصيبه أذى، وأعدَّت أسماء بنت أبي بكر لهما جهاز السَّفر، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتي لهما بأخبار قريش، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر يريح الغنم عليهما وهما في الغار ليشربا مِن لبنها، وفي طريقهما إلى المدينة كان أبو بكر إذا تذكر طلب قريش للرَّسول صلى الله عليه وسلم مشى خلفه، وإذا تذكر رصدها له مشى أمامه(١).

تعاون الصَّحابة رضوان الله عليهم في بناء المسجد النبوي:

- عندما قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لبني النَّجار: ((يا بني النَّجار ثامنوني بحائطكم هذا، قالوا: لا والله لا نطلب ثمنه إلَّا إلى الله، فقال أنسٌ: فكان فيه ما أقول لكم قبور المشركين، وفيه خربٌ وفيه نخلٌ، فأمر النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بقبور المشركين، فنُبِشَت، ثمَّ بالخرب فسوِّيت، وبالنَّخل فقطِّع، فصفُّوا النَّخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصَّخر وهم يرتجزون والنَّبيُّ صلى الله عليه وسلم معهم، وهو يقول: اللَّهمَّ لا خير إلَّا خير الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة))(٢).

تعاون الأنصار مع المهاجرين بعد الهجرة:

- قال عبد الرَّحمن بن عوف رضي الله عنه: ((آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيني وبين سعد بن الرَّبيع، فقال لي سعد: إنِّي أكثر الأنصار مالًا، فأقاسمك مالي شطرين، ولي امرأتان، فانظر أيتهما شئت حتى أنزل لك عنها، فإذا حلَّت تزوجتها، فقلت: لا حاجة لي في ذلك، دلُّوني على السُّوق، فدلُّوني

(١) انظر: ((صحيح البخاري)) حديث رقم (٣٩٠٥).
(٢) رواه البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤).

على سوق بني قينقاع، فما رحت حتى استفضلت أقِطًا[١] وسمنًا))[٢].

- وقالت الأنصار للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم: ((اقسم بيننا وبينهم النَّخل، قال: لا. قال: يكفوننا المئونة ويشركوننا في التَّمر. قالوا: سمعنا وأطعنا))[٣].

ومِن تعاون الصَّحابة أيضًا:

- موقفهم في قصَّة سلمان رضي الله عنه عندما كاتب سيِّده، وكان فقيرًا لا يملك ما كاتب عليه، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم للصَّحابة: ((أعينوا أخاكم)) فأعانوه، حتى تحرَّر مِن رقِّه، وأصبح حرًّا[٤].

ميادين التَّعاون:

(لقد أقام الإسلام التَّعاون بين المسلمين على أساس مُحْكَم، ومدَّ له في كلِّ ناحية مِن نواحي الحياة بسببٍ. فالتَّمثيل القرآني لأهل الإيمان أنَّهم كالبنيان المرصوص، وفي التَّمثيل النَّبوي كالجسد الواحد. فأمور الإسلام ومطلوباته لا تتحقَّق على وجهها إلَّا بالتَّعاون. ودين الله بنيان شامخ لا يقوم ولا يثبت إلَّا حين تتراص لبناته، وتتضامن مبانيه؛ لتسدَّ كلُّ لبنة ثغرتها.

وإذا كان الله سبحانه قد خَلَق الخَلْق لعبادته وطاعته فإنَّ هذه العبادات والطَّاعات أنواع: قلبيَّة عقليَّة كالإيمان، وبدنيَّة كالصَّلاة، وماليَّة كالزَّكاة،

---

(١) الأقط: شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/٢٥٧).

(٢) رواه البخاري (٢٠٤٨).

(٣) رواه البخاري (٣٧٨٢).

(٤) رواه أحمد (٥/٤٤١) (٢٣٧٨٨)، والبزار (٦/٤٦٢) (٢٥٠٠)، والطَّحاوي في ((شرح مشكل الآثار)) (١٢/٢٢٨)، والطَّبراني (٦/٢٢٢) (٦٠٦٥). قال ابن العراقي في ((طرح التَّثريب)) (٤/٤٢): إسناده جيِّد، وحسَّن إسناده الألباني في ((السِّلسلة الصَّحيحة)) (٢/٥٥٦)، وحسَّن الحديث الوادعي في ((الصَّحيح المسند)) (٨٤).

ومركَّبة مِن البدن والمال كالحجِّ والجهاد.

وكلُّ هذه العبادات بأنواعها لا تقام ولا تشاد إلَّا بوسائلها: مِن صحة الفكر، وسلامة البدن، وسعة ذات اليد. ولهذه الوسائل وسائل: مِن التَّفقُّه في الدِّين، والإحسان في الأعمال؛ مِن زراعة وصناعة وحرف، وإتقان في العلوم والمعارف؛ مِن الطِّب والحساب والهندسة والمعامل والمختبرات. ومِن المقطوع به -كما سبق- أنَّ الإنسان بمفرده بل حتى الرَّهط مِن النَّاس والجماعة المحدودة مِن القوم لا تستطيع بهذه الوسائل الانفراد بتحقيق هذه المقاصد. ومنه يتبيَّن حاجة النَّاس إلى الاجتماع والتَّآزر، فذلك ما تقتضيه الفطرة، ويتطلبه الدِّين، وتنتظم به الشؤون، وتستقيم به العلوم.

وهذا بعض البسط لصورٍ مِن التَّعاون في أحكام الإسلام وآدابه، وإذا استجلاها رجل الدَّعوة عرف ضرورة التَّعاون وحاجته إليه في ميدانه ومجاله.

فالصَّلوات الخمس جماعة وجمعة، وصلاة العيدين وآدابهما، والحجُّ بشعائره، وعقد النِّكاح بوليمته وآدابه، وعقيقة المولود، وإجابة الدَّعوى حتى للصَّائم، كلُّها مناشط عباديَّة اجتماعيَّة تعاونيَّة، ولا تكون صورتها الشَّرعية إلَّا كذلك.

وينضمُّ إلى اجتماع الأعياد اجتماع الشدائد والكرب في صلوات الاستسقاء والكسوف والجنازة.

إنَّه انتظام عجيب بين أهل الإسلام في مواطن السُّرور والحزن، ناهيك بصورة الأخوَّة، ومبدأ الشُّورى، وحقوق المسلمين فيما بينهم؛ في القربى والجوار والضَّيف وابن السَّبيل واليتامى والمساكين، مع ما يحيط بذلك مِن سياج الآداب الاجتماعيَّة؛ مِن إفشاء السَّلام، وفسح المجالس،...

أمَّا أنواع المعاملات والتَّعاملات فذلك جليٌّ في عقود المضاربة والعارية والهبة والمهاداة وفرض الدِّية على العاقلة.

وثمَّة صورٌ مِن المعاونات في كفِّ الظُّلم، ونصرة المظلوم، ودفع الصَّائل بسلاح أو مال. بل هل يقوم الجهاد، وتُقام الحدود، وتُستوفى الحقوق، ويقوم الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر إلَّا بالتَّعاون والتآزر.

وهناك التَّعاون بالرَّأي، بما يدلُّ على الحقِّ، ويخرج مِن الحيرة، وينقذ مِن المأزق والهلكة، في النَّصيحة والمشاورة، وقد يكون تعاونًا بالجاه؛ مِن الشَّفاعة لذي الحاجة عند من يملك قضاءها...

فإذا وضع المسلمون أيديهم على هذه الأسباب الوثيقة، يتقدَّمهم أولو الأمر والعلماء والدُّعاة، بلغوا المكانة المحفوفة بالعزَّة المشار إليها بقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨])[1].

(قال ابن خويز منداد في أحكامه: والتَّعاون على البرِّ والتَّقوى يكون بوجوهٍ، فواجبٌ على العالم أن يعين النَّاس بعلمه فيعلِّمهم، ويعينهم الغني بماله، والشُّجاع بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة ((المؤمنون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمَّتهم أدناهم وهم يدٌ على مَن سواهم))[2]. ويجب

---

(١) ((مجلة البحوث الإسلامية)) العدد (٥١)، ربيع الأول - جمادى الثَّانية، ١٤١٨هـ، (٢١٢-٢١٥).

(٢) رواه أبو داود (٤٥٣٠)، والنسائي (١٩/٨)، وأحمد (١٢٢/١) (٩٩٣)، والبزار (٢٩٠/٢)، وأبو يعلى (٢٨٢/١) (٣٣٨)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (٢٦٦/٥) (٥٢٧٧)، والحاكم (١٥٣/٢)، والبيهقي (١٩٣/٨) (١٧٢٦٢). من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال البزار: روي من غير وجه، وإسناده أحسن إسنادًا يروى في ذلك وأصحه، وقال محمد بن عبد الهادي في ((المحرر)) (٣٩١): رجاله رجال الصحيحين، وصححه ابن الملقن في ((البدر المنير)) (١٥٩/٩)، والألباني في ((صحيح سنن النسائي)) (١٩/٨)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (٢١٢/٢) =

الإعراض عن المتعدِّي وترك النُّصرة له، وردُّه عمَّا هو عليه))[١].

أصناف النَّاس في التَّعاون:

قال الماورديُّ: (تنقسم أحوال مَن دخل في عداد الإخوان أربعة أقسام: منهم مَن يعين ويستعين، ومنهم مَن لا يعين ولا يستعين، ومنهم مَن يستعين ولا يعين، ومنهم مَن يعين ولا يستعين.

فأمَّا المعين والمستعين فهو معاوضٌ منصف؛ يؤدِّي ما عليه ويستوفي ماله، فهو كالمقرض يُسْعِف عند الحاجة ويستردُّ عند الاستغناء، وهو مشكورٌ في معونته، ومعذورٌ في استعانته، فهذا أعدل الإخوان.

وأمَّا مَن لا يُعين ولا يستعين فهو متروك قد منع خيره وقمع شرَّه، فهو لا صديق يُرْجَى، ولا عدوٌّ يُخْشَى، وإذا كان الأمر كذلك فهو كالصُّورة الممثَّلة، يروقك حسنها، ويخونك نفعها، فلا هو مذموم لقمع شرِّه، ولا هو مشكور لمنع خيره، وإن كان باللَّوم أجدر.

وأمَّا مَن يستعين ولا يُعين فهو لئيم كَلٌّ، ومهين مستذلٌّ، قد قُطِع عنه الرَّغبة، وبُسِط فيه الرَّهبة، فلا خيره يُرْجَى، ولا شرُّه يُؤْمَن، وحسبك مهانة مِن رجل مستثقل عند إقلاله، ويستقلُّ عند استقلاله فليس لمثله في الإخاء حظٌّ، ولا في الوداد نصيب.

وأمَّا مَن يُعين ولا يستعين فهو كريم الطَّبع، مشكور الصُّنع، وقد حاز فضيلتي الابتداء والاكتفاء، فلا يُرى ثقيلًا في نائبة، ولا يقعد عن نهضة في معونة.

= والحديث روي من طرق عن عائشة وابن عباس وعبد الله بن عمرو رضي الله عنهم.

(١) ((الجامع لأحكام القرآن)) للقرطبي (٦/ ٤٦).

فهذا أشرف الإخوان نفسًا وأكرمهم طبعًا، فينبغي لمن أوجد له الزَّمان مثله، وقلَّ أن يكون له مثل؛ لأنَّه البرُّ الكريم والدُّرُّ اليتيم، أن يثني عليه خنصره، ويعضَّ عليه بناجذه، ويكون به أشدَّ ضنًّا منه بنفائس أمواله، وسِنِي ذخائره؛ لأنَّ نفع الإخوان عامٌّ، ونفع المال خاصٌّ، ومَن كان أعمَّ نفعًا فهو بالادِّخار أحقُّ، ثمَّ لا ينبغي أن يزهد فيه لخُلُق أو خُلُقين ينكرهما منه إذا رضي سائر أخلاقه، وحمد أكثر شيمه؛ لأنَّ اليسير مغفور، والكمال مُعْوِز)[١].

فـ(هذا تقسيم مِن الماورديِّ رحمه الله أشبه بالحصر العقلي. وهو تقسيم جميل لتصوير النُّفوس وأحوال النَّاس والشُّخوص. ولكن واقع النَّاس، وما قضت به سنَّة الله في هذه الحياة، مِن بناء الدُّنْيا، واستقامة المعاش على المشاركة والمعاونة، واتخاذ النَّاس بعضهم بعضًا سخريًّا،... يشوِّش على ما قرَّره الماورديُّ، فلا يُتَصَوَّر في الواقع مِن أحد -فيما نحن بصدده- أن يحقِّق مبتغاه إلَّا بتعاضد أطرافٍ مِن النَّاس، هذا جانب. ومِن جانب آخر، فإنَّ البَذْل مِن طرف واحد -على نحو ما ذكر الماورديُّ- لا يسمَّى إلَّا إحسانًا ومنَّة ونعمة، وهذا ليس مِن باب التَّعاون في شيء إلَّا مِن حيث الأثر والفائدة للمُحَسن إليه والمنْعَم عليه.

كما أنَّ مَن يستعين ولا يُعين قد رضي لنفسه أن يكون عالة على غيره، وجعل حياته مبنيَّة على السُّؤال والطَّلب والتَّطلُّع إلى ما في أيدي النَّاس.

وأمَّا مَن لا يعين ولا يستعين فتصوُّر وجوده في بني الإنسان بعيد، على نحو ما سبق في المقدِّمة مِن تقرير أنَّ التَّعاون ضرورةٌ إنسانيَّة. فالإنسان لا يستغني

---

(١) ((أدب الدُّنْيا والدِّين)) (١٧١-١٧٣) بتصرُّف واختصار.

عن أخيه الإنسان، كما قضى الله عزَّ وجلَّ في سننه)[١].

التَّعاون بين الحاكم والمحكوم:

إنَّ الحاكم يحتاج إلى المعاونة والمساعدة، مثله مثل غيره مِن البشر، بل هو أشدُّ حاجةً إلى ذلك مِن غيره، بسبب الأعمال والتَّكاليف الكثيرة التي يواجهها في إدارة البلاد، ومحال أن يتصدَّر لكلِّ شئون البلاد ويديرها دون وجود المعين والمساعد، (فإنَّ الإمام ليس هو ربًّا لرعيته حتى يستغني عنهم، ولا هو رسول الله إليهم حتى يكون هو الواسطة بينهم وبين الله. وإنَّما هو والرَّعية شركاء يتعاونون هم وهو على مصلحة الدِّين والدُّنْيا، فلا بدَّ له مِن إعانتهم، ولا بدَّ لهم مِن إعانته، كأمير القافلة الذي يسير بهم في الطَّريق: إن سلك بهم الطَّريق اتبعوه، وإن أخطأ عن الطَّريق نبَّهوه وأرشدوه، وإن خرج عليهم صائلٌ يصول عليهم تعاون هو وهم على دفعه)[٢].

• وصايا في الحثِّ على التَّعاون:

- قال أبو هلال العسكري: (أجود ما قيل في التَّضافر والتَّعاون قول قيس بن عاصم المنقري يُوصي ولده وقومه: وجدت في كتاب غير مسموع لما حضر عبد الملك بن مروان الوفاة وعاينته، وقال: يا بني، أُوصيكم بتقوى الله، وليعطف الكبير منكم على الصَّغير، ولا يجهل الصَّغير حقَّ الكبير، وأكرموا مسلمة بن عبد الملك؛ فإنَّه نابكم الذي عنه تعبرون، ومِجَنَّكم الذي به تستجيرون، ولا تقطعوا مِن دونه رأيًا ولا تعصوا له أمرًا، وأكرموا الحجاج ابن يوسف؛ فإنَّه الذي وطَّأ لكم المغابر، وذلَّل لكم قارب العرب، وعليكم

---

(١) ((مجلة البحوث الإسلامية)) العدد (٥١)، ربيع الأول – جمادى الثانية، ١٤١٨هـ، (٢٠٩-٢١٠).
(٢) ((منهاج السُّنَّة)) لابن تيمية (٥/٤٦٣).

بالتَّعاون والتَّضافر، وإيَّاكم والتَّقاطع والتَّدابر. فقال قيس بن عاصم لبنيه:

بصلاح ذات البين طول بقائكم   إن مدَّ في عمري وإن لم يمدد
حتى تلين جلدوكم وقلوبكم   لمسود منكم وغير مُسَود
إن القداح إذا جمعن فرامها   بالكسر ذو حنق وبطش أيِّد(١)
عزَّت ولم تكسر وإن هي بددت   فالوهن والتَّكسير للمتبدِّد(٢)

- رُوِي أنَّ أكثم بن صيفي دعا أولاده عند موته، فاستدعى بضمامة مِن السِّهام، وتقدَّم إلى كلِّ واحدٍ أن يكسرها، فلم يقدر أحدٌ على كسرها، ثمَّ بدَّدها وتقدَّم إليهم أن يكسروها، فاستهلوا كسرها، فقال: كونوا مجتمعين؛ ليعجز مَن ناوأكم عن كسركم كعجزكم(٣).

- و(دعا يزيد بن المهلَّب ولده حبيبًا ومَن حضر مِن ولده، ودعا بسهام، فحزمت، وقال: أفترونكم كاسريها مجتمعةً؟ فقالوا: لا. قال: أفترونكم كاسريها مفترقةً؟ قالوا: نعم، قال: هكذا الجماعة)(٤).

• التَّعاون في عالم الحيوانات والطُّيور:

توجد العديد مِن الأمثلة التي تدلُّ على التَّعاون والتَّآزر والتَّكافل بين الكائنات الحيَّة، وكثيرٌ مِن هذه الكائنات تعيش على شكل مجاميع وقطعان، لتكون قوَّة واحدة لحماية بعضها البعض، وللتَّصدِّي لأي خطر قد يُحْدِق بأحد أفرادها.

---

(١) أيدته تأييدا: قويته. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٧/٣٩٧).
(٢) ((ديوان المعاني)) (١/١٥١).
(٣) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (٢/١٣٥).
(٤) ((صفحات مشرقة مِن حياة السَّابقين)) لنذير محمد كتبي (ص ٣٦٢).

(مخلوقات جعل الله في فطرتها نوع تعاون، إمَّا لتأمين غذائها أو الدِّفاع عن نفسها وجماعتها، ويظهر ذلك في جنسي النَّمل والنَّحل.

فقد شُوهِد أنَّ النَّمل إذا عثر على عسل في وعاء، ولم يتمكَّن مِن الوصول إليه مباشرة؛ لوجود ماء أو سائل يحول بينه وبين هذا العسل، فإنَّه يتعاون بطريقة فدائيَّة انتحاريَّة؛ فتتقدَّم فِرَقٌ بعد أخرى فتلتصق بالسَّائل وتموت، وتتقدَّم غيرها مثلها حتى تتكون قنطرة مِن جثث النَّمل الميِّت يعبر عليها الأحياء الباقون، فيدخلون الوعاء، ويصلون إلى العسل، ويبلغون مأربهم. هذا في حال اليُسْر والغذاء.

أمَّا في حال العُسْر والتَّعرُّض للمخاطر: فإنَّ مجاميع النَّمل إذا تعرَّضت لتيَّار مائي داهم - مثلًا - فإنَّ بعضها يمسك ببعض ثمَّ تكوِّن كتلة كرويَّة متماسكة تتحمَّل اندفاع التَّيَّار، ثمَّ تعمل حركتين في آن واحد، إحداهما: تتحرَّك فيها الأرجل كالمجاديف في اتجاه واحد نحو أقرب شاطئ، والثَّانية: حركة دائريَّة مِن أعلى إلى أسفل؛ ليتم تقاسم التَّنفُّس بين الجميع، فإذا ما تنفَّس مَن في الأعلى حصل انقلاب؛ ليرتفع مَن في جهة القاع، فيأخذ حظه مِن النَّفس، وهكذا في حركة دائريَّة حتى يبلغوا شاطئ الأمان.

فسبحان الذي أعطى كلَّ شيء خَلْقَه ثمَّ هدى. وسبحان مَن وهب الإنسان العقل المفكِّر ليتأسَّى ويعتبر ويكتشف ويرقى بفكره - بعد هداية الله وتوفيقه - ليكون خيرًا مِن الأنعام.

أمَّا النَّحل فنظامه في تكوين مملكته، وإنتاج عسله، وترتيب الأعمال بين أفراد خليَّته، فعَجَبٌ عُجَاب في التَّعاون والتَّناوب، ولله في خلقه شؤون)[1].

(١) ((مجلة البحوث الإسلامية)) العدد (٥١)، ربيع الأول - جمادى الثانية، ١٤١٨هـ، (١٩٨-١٩٩).

فهذه الأمثلة وغيرها، تبيِّن عظيم قدرته سبحانه وتعالى في الكون، الذي فطر جميع المخلوقات على التَّعاون والتَّكافل والتَّآزر.

حكمٌ وأمثالٌ في التَّعاون:

- في الجريرة تشترك العشيرة.

يُضْرَب في الحثِّ على المواساة والتَّعاون(١).

- هل ينهض البازي بغير جناحٍ؟

يُضْرَب في الحثِّ على التَّعاون والوِفَاق(٢).

- بالسَّاعدين تبطش الكفَّان.

يُضْرَب في تعاون الرَّجلين وتساعدهما وتعاضدهما في الأمر(٣).

- بال حمارٌ فاستبال أَحْمِرَةً.

أي حملهنَّ على البول. يُضْرَب في تعاون القوم على ما تكرهه(٤).

مِن أقوال الحكماء:

- مَن جاد لك بمودَّته فقد جعلك عديل نفسه، فأوَّل حقوقه اعتقاد مودَّته، ثمَّ إيناسه والانبساط إليه في غير محرَّم، ثمَّ نصحه في السِّرِّ والعلانية، ثمَّ تخفيف الأثقال عنه، ثمَّ معاونته فيما ينوبه مِن حادثة، أو يناله مِن نكبة، فإنَّ مراقبته في الظَّاهر نفاق، وتركه في الشِّدَّة لُؤْم(٥).

---

(١) ((المعجم الوسيط)) (ص ١١٦).
(٢) ((مجمع الأمثال)) للنيسابوري (٤٠٤/٢).
(٣) ((المصدر السابق)) (٩٥/١).
(٤) ((المصدر السابق)) (٩٨/١).
(٥) ((أدب الدُّنْيا والدِّين)) للماوردي (ص ١٧٦).

- فضيلة الفلَّاحين التَّعاون بالأعمال، وفضيلة التِّجَّار التَّعاون بالأموال، وفضيلة الملوك التَّعاون بالآراء والسِّياسة، وفضيلة العلماء التَّعاون بالحِكَم[1].

التَّعاون في واحة الشِّعر:

قال الشَّاعر:

لولا التَّعاونُ بينَ النَّاسِ ما شرفتْ نفسٌ ولا ازدهرتْ أرضٌ بعمرانِ[2]

ويرحم الله شوقي حيث يقول:

إنَّ التَّعاون قوَّةٌ عُلويةٌ تبني الرِّجالَ وتبدعُ الأشياءَ[3]

وقال آخر:

لعمرُك ما مال الفتى بذخيرةٍ ولكن إخوانَ الثِّقاتِ الذخائرُ[4]

وقال آخر:

يُعرِّفُك الإخوانُ كلٌّ بنفسِه وخيرُ أخٍ ما عرَّفتك الشدائدُ[5]

وقال آخر:

أُعِين أخي أو صاحبي في بلائِه أقومُ إذا عضَّ الزَّمانُ وأقعُدُ
ومَن يفردِ الإخوانَ فيما ينوبُهم تَنُبْه الليالي مرَّةً وهو مفردُ[6]

(١) ((الكشكول)) لبهاء الدين الهمذاني (٢/٢٨٩).
(٢) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٣٠٣).
(٣) ((المصدر السابق)).
(٤) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (٣/٤).
(٥) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٨٧).
(٦) ((التذكرة السعدية)) لمحمد بن عبد الرحمن العبيدي (ص: ٣٢١).

وقال حافظ إبراهيم:

لا تعجبنَّ لملكٍ عَزَّ جانبُه   لولا التَّعاونُ لم تنظرْ له أثرَا[1]

وقال آخر:

أخاك أخاك إنَّ مَن لا أخًا له   كساعٍ إلى الهيجا بغيرِ سلاحِ

وإنَّ ابنَ عمِّ المرءِ – فاعلمْ – جناحُه   وهل ينهضُ البازي[2] بغيرِ جناحِ[3]

ولله درُّ القائل:

كونوا جميعًا يا بَنِيَّ إذا اعترى   خَطبٌ ولا تتفرَّقوا آحادَا

تأبى القِداحُ إذا اجتمعن تكسُّرًا   وإذا افترقن تكسَّرت أفرادَا[4]

وقال آخر:

النَّاسُ للنَّاسِ مِن بَدوٍ وحاضرةٍ   بعضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خدمُ[5]

وقال آخر:

إذا العبءُ الثَّقيلُ توزَّعته   رقابُ القومِ خفَّ على الرِّقابِ[6]

وقال آخر:

وإن قام منهم قائمٌ قال قاعدٌ   رشدتَ فلا غرمٌ عليك ولا خَذْلُ

(١) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٣٠٣).
(٢) البازي: واحد البزاة التي تصيد، ضرب من الصقور. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٧٢/١٤).
(٣) ((عيون الأخبار)) لابن قتيبة الدينوري (٤/٣).
(٤) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٨٦).
(٥) ((موارد الظمآن لدروس الزمان)) لعبد العزيز السلمان (١٥٥/٤).
(٦) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٣٠٣).

وقال آخر:

إذا ما تأمَّلنا الأمورَ تبيَّنتْ ... لنا وأميرُ القومِ للقومِ خادمُ[1]

وقال آخر:

إذا سيِّدٌ منَّا ذَرَا حَدُّ نابِه ... تَخَمَّطَ[2] فِينا نابُ آخرَ مُقْرَمِ[3]

وقال أحد الشُّعراء:

همومُ رجالٍ في أمورٍ كثيرةٍ ... وهمِّي مِن الدُّنْيا صديقٌ مساعدُ
نكونُ كروحٍ بينَ جسمين قُسمتْ ... فجسماهما جسمان والرُّوحُ واحدُ[4]

وقال آخر:

إنِّي رأيــــتُ نمـلـةً ... في حــيرةٍ بــين الجـبـال
لم تـستـطـعْ حمـلَ الـطَّعـامِ ... وحـدَهـا فـوق الـرِّمـال
نـادت عـلـى أخـتٍ لها ... تـعـينُـهـا فـالحـمـلُ مـال
لم يـسـتـطـيـعا حمـلَه ... تـذكَّـرا قـولًا يُـقَـال
تـعـاونـوا جمـيـعـكـم ... فـالخـير يـأتي بـالـوصـال
نـادت عـلـى إخـوانِهـا ... جـاءوا جمـيـعًـا بـالحـبـال
جـرُّوا مـعًـا طـعـامَـهـم ... لم يـعـرفـوا شـيـئًـا محـال

وقال حافظ إبراهيم:

إذا ألـمَّت بوادي النِّيلِ نازلةٌ ... باتت لها راسياتُ الشَّامِ تضطربُ

---

(١) ((موارد الظمآن لدروس الزمان)) لعبد العزيز السلمان (٤/١٥٦).
(٢) التخمط هو: الأخذ والقهر بغلبة. ((لسان العرب)) لابن منظور (٧/٢٩٧).
(٣) القرم من الرجال: (السيد) المعظم. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (٣٣/٢٥٣).
(٤) ((صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم)) لحسين المهدي (ص ٦٦٦).

وإن دعا في ثرى الأهرام ذو ألمٍ   أجابه في ذرا لبنان منتحبُ
لو أخلص النِّيلُ والأردنُ ودَّهما   تصافحتْ منهما الأمواهُ والعشبُ[1]

وقال آخر:

وكلُّ عضوٍ لأمرٍ ما يمارسُه   لا مشي للكفِّ بل تمشي به القدمُ[2]

وقال أحمد محرم:

وبلوتُ أسبابَ الحياةِ وقستُها   فإذا التَّعاونُ قوَّةٌ ونجاحُ

وقال أيضًا:

وإن ضاع التَّعاونُ في أناسٍ   عَفت آثارُهم في الضَّائعينا[3]



(١) ((ديوان حافظ إبراهيم)) (ص ٢٦٩).
(٢) ((موارد الظمآن لدروس الزمان)) لعبد العزيز السلمان (١٥٦/٤).
(٣) ((ديوان محرَّم)) لأحمد محرم (٥٩٢/١).



التَّوَاضُع



التَّواضُع

معنى التَّواضُع لغةً واصطلاحًا:

- **معنى التَّواضُع لغةً:**

التواضع التذلل، يُقَال: وضَعَ فُلانٌ نَفْسَهُ وضْعًا، ووُضُوعًا بالضَّم، وَضَعَةً، بالفَتْحِ: أي أذلَّها. وتَوَاضَعَ الرَّجُلُ: إذا تَذَلَّلَ، وقيل: ذَلَّ وتَخاشَعَ[1].

- **معنى التَّواضُع اصطلاحًا:**

التَّواضُع هو: (ترك التَّرؤس، وإظهار الخمول، وكراهية التَّعظيم، والزِّيادة في الإكرام، وأن يتجنَّب الإنسان المباهاة بما فيه مِن الفضائل، والمفاخرة بالجاه والمال، وأن يتحرَّز مِن الإعجاب والكِبْر)[2].

وقيل هو: (رضا الإنسان بمنزلة دون ما يستحقُّه فضله ومنزلته. وهو وسطٌ بين الكِبْر والضِّعَة، فالضِّعَة: وضع الإنسان نفسه مكانًا يزري به بتضييع حقِّه. والكِبْر: رفع نفسه فوق قدره)[3].

وقيل هو: (إظهار التَّنزُّل عن المرتبة لمن يراد تعظيمه، وقيل: هو تعظيم مَن فوقه فضله)[4].

الفرق بين التَّواضُع وبعض الصِّفات:

- **الفرق بين التَّواضُع والتَّذلُّل:**

(أنَّ التَّذلُّل: إظهار العجز عن مقاومة مَن يتذلَّل له.

---

(١) ((العين)) للفراهيدي (٢/١٩٦)، ((تاج العروس)) لمرتضى الزبيدي (٢٢/٣٤٣).
(٢) ((تهذيب الأخلاق)) للجاحظ (ص ٢٥).
(٣) ((الذَّريعة إلى مكارم الشَّريعة)) للرَّاغب الأصفهاني (ص ٢٩٩).
(٤) ((فتح الباري)) لابن حجر (١١/٣٤١).

والتَّواضُع: إظهار قُدْرَة مَن يتواضع له، سواءً كان ذا قُدْرَة على المتواضع أو لا، ألا ترى أنَّه يُقَال العبد: متواضع لخَدمه، أي: يعاملهم معاملة مَن لهم عليه قُدْرَة، ولا يُقَال: يتذلَّل لهم؛ لأنَّ التَّذلُّل: إظهار العجز عن مقاومة المتَذَلَّل له، وأنَّه قاهر، وليست هذه صفة المِلك مع خدمه)[١].

• الفرق بين التَّواضُع والخشوع:

(التَّواضُع: يعتبر بالأخلاق والأفعال الظَّاهرة والباطنة.

والخشوع: يقال باعتبار الجوارح، ولذلك قيل: إذا تواضع القلب خشعت الجوارح)[٢].

التَّرغيب في التَّواضُع:

أولًا: في القرآن الكريم

- قال الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، قال ابن القيِّم: (أي: سكينة ووقارًا، متواضعين غير أشرين ولا مَرِحين ولا متكبِّرين، قال الحسن: علماء حلماء. وقال محمَّد بن الحنفيَّة: أصحاب وقار وعفَّة، لا يسفِّهون، وإن سُفِه عليهم حلموا. والهَوْن -بالفتح- في اللُّغة: الرِّفق واللِّين، والهُون -بالضَّم-: الهَوَان فالمفتوح منه: صفة أهل الإيمان، والمضموم صفة أهل الكُفْران، وجزاؤهم مِن الله النِّيران)[٣].

(وقال تعالى مخاطبًا رسوله، ممتنًّا عليه وعلى المؤمنين فيما أَلان به قلبه على أمَّته المتَّبعين لأمره، التَّاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ

(١) ((الفروق اللغوية)) لأبي هلال العسكري (ص ١٢٢).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٢١٦).
(٣) ((مدارج السَّالكين)) (٣/١٠٨).

وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٩])[1].

- كما أمره الله سبحانه وتعالى أن يلين جانبه للمؤمنين، وأن يتواضع لهم، فقال: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨].

قال القرطبيُّ في تفسير هذه الآية: (أي: أَلِن جانبك لمن آمن بك، وتواضعْ لهم)[2].

وقال عزَّ مِن قائل: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشُّعراء: ٢١٥].

- ووصف الله سبحانه وتعالى أصحاب النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بأنَّهم (يظهرون العطف والحُنُوَّ والتَّواضُع للمؤمنين، ويظهرون الشِّدَّة والغلظة والتَّرفُّع على الكافرين)[3] حيث قال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال ابن كثير: (هذه صفات المؤمنين الكُمَّل أن يكون أحدهم متواضعًا لأخيه ووليِّه، متعزِّزًا على خصمه وعدوِّه، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩])[4].

وقال ابن القيِّم: (لـمَّا كان الذُّل منهم ذُلَّ رحمة وعطف وشفقة وإخبات، عدَّاه بأداة على تضمينًا لمعاني هذه الأفعال، فإنَّه لم يرد به ذُلَّ الهوان الذي صاحبه ذليل، وإنَّما هو ذُلُّ اللِّين والانقياد الذي صاحبه ذلول، فالمؤمن ذلول

(١) ((تفسير القرآن العظيم)) لابن كثير (١٤٨/٢).
(٢) ((الجامع لأحكام القرآن)) (٥٦/١٠).
(٣) ((فتح القدير)) للشَّوكاني (٧٥/٢).
(٤) ((تفسير القرآن العظيم)) (١٣٦/٣).

كما في الحديث: المؤمن كالجمل الذَّلول، والمنافق والفاسق ذليل)[١].

- وقوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]، (حيث أمر الله بالتَّواضُع للوالدين ذلًّا لهما ورحمة واحتسابًا للأجر)[٢].

وقال سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

قال ابن كثير: (يخبر تعالى أنَّ الدَّار الآخرة ونعيمها المقيم الذي لا يحول ولا يزول، جعلها لعباده المؤمنين المتواضعين، ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: ترفُّعًا على خلق الله وتعاظمًا عليهم وتجبُّرًا بهم، ولا فسادًا فيهم)[٣].

ثانيًا: في السُّنَّة النبوية

رغَّب الإسلام في التَّواضُع وحثَّ عليه ابتغاء مرضات الله، وأنَّ مَن تواضع جازاه الله على تواضعه بالرِّفعة، وقد وردت نصوصٌ مِن السُّنَّة النَّبويَّة تدلُّ على ذلك:

- منها قوله صلى الله عليه وسلم: ((ما نقصت صدقة مِن مال، وما زاد الله عبدًا بعفوٍ إلَّا عزًّا، وما تواضع أحد لله إلَّا رفعه الله))[٤].

قال القاضي عياض في قوله صلى الله عليه وسلم ((وما تواضع أحد لله إلَّا رفعه الله)): (فيه وجهان: أحدهما: أنَّ الله تعالى يمنحه ذلك في الدُّنْيا جزاءً

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٢/٣٢٧).

(٢) ((تيسير الكريم الرَّحمن)) لعبد الرَّحمن السعدي (١/٤٥٦).

(٣) ((تفسير القرآن العظيم)) (٦/٢٥٨).

(٤) رواه مسلم (٢٥٨٨) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على تواضعه له، وأنَّ تواضعه يُثْبِتُ له في القلوب محبَّةً ومكانةً وعزَّةً.

والثَّاني: أن يكون ذلك ثوابه في الآخرة على تواضعه)[١].

- وعن عياض بن حمار رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنَّ الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ))[٢].

(يعني: أن يتواضع كلُّ واحد للآخر، ولا يترفَّع عليه، بل يجعله مثله أو يكرمه أكثر، وكان مِن عادة السَّلف رحمهم الله: أنَّ الإنسان منهم يجعل مَن هو أصغر منه مثل ابنه، ومَن هو أكبر مثل أبيه، ومَن هو مثله مثل أخيه، فينظر إلى ما هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال، وإلى مَن هو دونه نظرة إشفاق ورحمة، وإلى مَن هو مثله نظرة مساواة، فلا يبغي أحدٌ على أحد، وهذا مِن الأمور التي يجب على الإنسان أن يتَّصف بها، أي بالتَّواضُع لله عزَّ وجلَّ ولإخوانه مِن المسلمين)[٣].

- وعن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن ترك اللِّباس تواضعًا للَّه، وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتى يخيِّره مِن أيِّ حلل الإيمان شاء يلبسها))[٤].

قال ابن عثيمين: (وهذا يعني أنَّ الإنسان إذا كان بين أناس متوسِّطي الحال لا يستطيعون اللِّباس الرَّفيع، فتواضع وصار يلبس مثلهم، لئلَّا تنكسر قلوبهم،

(١) ((إكمال المعْلِم شرح صحيح مسلم)) للقاضي عياض (٥٩/٨).
(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) مِن حديث عياض بن حمار رضي الله عنه .
(٣) ((شرح رياض الصَّالحين)) لابن عثيمين (٥٢٤/٣).
(٤) رواه التِرِّمذي (٢٤٨١) مِن حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه. وحسَّنه، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٦١٤٥).

ولئلَّا يفخر عليهم، فإنَّه ينال هذا الأجر العظيم، أمَّا إذا كان بين أناس قد أنعم عليهم، ويلبسون الثِّياب الرَّفيعة لكنَّها غير محرَّمة، فإنَّ الأفضل أن يلبس مثلهم؛ لأنَّ الله تعالى جميل يحبُّ الجمال، ولا شكَّ أنَّ الإنسان إذا كان بين أناس رفيعي الحال، يلبسون الثِّياب الجميلة، ولبس دونهم فإنَّ هذا يُعَدُّ لباسَ شهرة؛ فالإنسان ينظر ما تقتضيه الحال)[١].

- وعن حارثة بن وهب رضي الله عنه أنَّه سمع النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: ((ألا أخبركم بأهل الجنَّة؟ قالوا: بلى. قال صلى الله عليه وسلم: كلُّ ضعيف متضعِّف، لو أقسم على الله لأبرَّه. ثمَّ قال:ألا أخبركم بأهل النَّار؟ قالوا: بلى. قال: كلُّ عتلٍّ[٢] جوَّاظٍ[٣] مستكبر))[٤].

قال القاضي عياض: (وقوله في أهل الجنَّة: ((كلُّ ضعيفٍ متضعِّف))... هو صفة نفي الكِبرْياء والجبروت التي هي صفة أهل النَّار، ومَدَح التَّواضُع والخمول، والتَّذلُّل لله عزَّ وجلَّ، وحضَّ عليه)[٥].

- عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((ابغوني في ضعفائكم، فإنَّما تُرْزَقون وتُنْصَرون بضعفائكم))[٦].

(١) ((شرح رياض الصالحين)) (٤/٣١٧-٣١٨).
(٢) عتلٍّ: الجافي الشديد الخصومة بالباطل وقيل الجافي الفظ الغليظ. انظر: ((شرح مسلم)) للنووي (١٧/١٨٨).
(٣) الجوَّاظ: الجموع المنوع وقيل كثير اللحم المختال في مشيته وقيل القصير البطين وقيل الفاخر. انظر: ((شرح مسلم)) للنووي (١٧/١٨٨).
(٤) رواه البخاري (٤٩١٨)، ومسلم (٢٨٥٣) مِن حديث حارثة بن وهب رضي الله عنه .
(٥) ((إكمال الُمعْلِم شرح صحيح مسلم)) للقاضي عياض (٨/٣٨٣).
(٦) رواه أبو داود (٢٥٩٤)، والترِّمذي (١٧٠٢)، وابن حبان (١١/٨٥) (٤٧٦٧) مِن حديث أبي الدَّرداء رضي الله عنه. قال التِّرمذي: حسن صحيح. وحسَّن إسناده البزار في ((البحر الزخار)) (١٠/٧٥)، والنووي في ((الخلاصة)) (٢/٨٧٣).

قال الطِّيبيُّ في معنى الحديث: (فيه نهيٌ عن مخالطة الأغنياء، وتحذيرٌ مِن التَّكبُّر على الفقراء، والمحافظة على جبر خواطرهم، ولهذا قال لقمان لابنه: لا تحقرنَّ أحدًا لخُلْقَان ثيابه؛ فإنَّ ربَّك وربَّه واحدٌ.

وقال ابن معاذ: حبُّك الفقراء مِن أخلاق المرسلين، وإيثارك مجالستهم مِن علامات الصَّالحين، وفرارك منهم مِن علامات المنافقين)[١].

أقوال السَّلف والعلماء في التَّواضُع:

- عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (إنَّكم لتغفلون أفضل العبادة: التَّواضُع)[٢].

- وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: (لا يبلغ عبدٌ ذُرَى الإيمان حتى يكون التَّواضُع أحبَّ إليه مِن الشَّرف، وما قلَّ مِن الدُّنْيا أحبَّ إليه ممَّا كَثُر، ويكون مَن أحبَّ وأبغض في الحقِّ سواء، يحكم للنَّاس كما يحكم لنفسه وأهل بيته)[٣].

- و(سُئِل الفضيل بن عياض عن التَّواضُع، فقال: يخضع للحقِّ، وينقاد له، ويقبله ممَّن قاله)[٤].

- وقال ابن المبارك: (رأس التَّواضُع أن تضع نفسك عند مَن هو دونك في نعمة الدُّنْيا حتى تُعْلِمه أن ليس لك بدنياك عليه فضل، وأن ترفع نفسك عمَّن

---

(١) ((فيض القدير)) للمناوي (١/١٠٩).

(٢) رواه النسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠/٤٠٥) (١١٨٥٢)، وابن المبارك في ((الزُّهد)) (١/١٣٢)، وأبو داود في ((الزُّهد)) (٢٨٦) مِن حديث الأسود بن يزيد رحمه الله. وقال ابن حجر العسقلاني في ((الأمالي المطلقة)) (٩٦): حسن غريب، اخْتُلف فيه على ابن المبارك، والمشهور عنه أنَّه موقوف.

(٣) رواه ابن المبارك في ((الزُّهد)) (٢/٥٢) مِن حديث مكحول رحمه الله.

(٤) ((مدارج السَّالكين)) لابن قيِّم الجوزيَّة (٢/٣٢٩).

هو فوقك في نعمة الدُّنْيا، حتى تُعْلِمه أنَّه ليس له بدنياه عليك فضل)[١].

- وعن إبراهيم بن أبي عبلة قال: (رأيت أمَّ الدَّرداء مع نساء المساكين جالسة ببيت المقدس)[٢].

- وقال قتادة: (مَن أُعْطِي مالًا أو جمالًا وثيابًا وعلمًا، ثمَّ لم يتواضع، كان عليه وبالًا يوم القيامة)[٣].

- وقال يحي بن الحكم بن أبي العاص لعبد الملك: (أيُّ الرِّجال أفضل؟ قال: مَن تواضع عن رفعة، وزهد على قُدْرَة، وترك النُّصرة على قومه)[٤].

- وقال إبراهيم بن شيبان: (الشَّرف في التَّواضُع، والعزُّ في التَّقوى، والحرِّية في القناعة)[٥].

- وقال علوان بن داود البجلي: حدَّثني شيخٌ مِن همدان عن أبيه قال: (بعثني قومي في الجاهليَّة بخيلٍ أهدوها لذي الكَلَاع، فأقمت ببابه سنةً لا أصِلُ إليه، ثمَّ أشرف إشرافةً على النَّاس مِن غُرْفَة له، فخرُّوا له سجودًا، ثمَّ جلس فلقيته بالخيل، فقبلها، ثمَّ لقد رأيته بحمص وقد أسلم، يحمل بالدِّرهم اللَّحم، فيبتدره قومه ومواليه فيأخذونه منه فيأبى تواضعًا، وقال:

أفٍّ لذي الدُّنْيا إذا كانت كذا ... أنا منها كلَّ يوم في أذى
ولقد كنت إذا ما قيل مَن ... أنعم النَّاس معاشًا قيل ذا
ثمَّ بُدِّلت بعيش شقوة ... حبَّذا هذا شقاء حبَّذا[٦]

(١) ((التواضع والخمول)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ١٤٢).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ١٤٩).
(٣) ((المصدر السابق)) (ص ١٤٢).
(٤) ((المصدر السابق)) (ص ١٤٤).
(٥) ((مدارج السَّالكين)) لابن قيِّم الجوزيَّة (٢/٣٣٠).
(٦) ((التواضع والخمول)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ١٤٦).

- وعن صالح المرِّيِّ قال: (خرج الحسن ويونس وأيوب يتذاكرون التَّواضُع، فقال لهما الحسن: وهل تدرون ما التَّواضُع؟ التَّواضُع: أن تخرج مِن منزلك فلا تلق مسلمًا إلَّا رأيت له عليك فضلًا)[1].

- (وولي أبو هريرة رضي الله عنه إمارةً مرَّةً، فكان يحمل حزمة الحطب على ظهره، يقول: طرِّقوا للأمير)[2].

- وقال يحيى ابن أبي كثير: (رأس التَّواضُع ثلاث: أن ترضى بالدُّون مِن شرف المجلس، وأن تبدأ مَن لقيته بالسَّلام، وأن تكره مِن المدحة والسُّمعة والرِّياء بالبِرِّ)[3].

فوائد التَّواضُع:

١- أنَّ التَّواضُع يرفع المرء قدرًا ويُعْظِم له خطرًا ويزيده نبلًا[4].

٢- التَّواضُع يؤدِّي إلى الخضوع للحقِّ والانقياد له[5].

٣- التَّواضُع هو عين العزِّ؛ لأنَّه طاعة لله ورجوع إلى الصَّواب[6].

٤- يكفي المتواضع محبَّة عباد الله له، ورفع الله إيَّاه[7].

٥- التَّواضُع فيه مصلحة الدِّين والدُّنْيا، ويزيل الشَّحناء بين النَّاس، ويريح مِن تعب المباهاة والمفاخرة[8].

---

(١) ((التواضع والخمول)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ١٥٤).
(٢) رواه ابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٣٧٣/٦٧).
(٣) ((التواضع والخمول)) لابن أبي الدُّنْيا (ص ١٥٥).
(٤) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٦١).
(٥) ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لحسن المرسي -بتصرُّف- (ص ٢٠٩).
(٦) ((المصدر السابق)).
(٧) ((المصدر السابق)).
(٨) ((فتح الباري)) لابن حجر بتصرُّف (٣٤١/١١).

٦- التَّواضُع يُكْسِب السَّلامة، ويورث الألفة، ويرفع الحقد، ويُذْهِب الصَّد[١].

٧- ثمرة التَّواضُع المحبَّة، كما أنَّ ثمرة القناعة الرَّاحة، وإنَّ تواضع الشَّريف يزيد في شرفه، كما أنَّ تكبُّر الوضيع يزيد في ضِعَتِه[٢].

٨- التَّواضُع يؤلِّف القلوب، ويفتح مغاليقها، ويجعل صاحبه جليل القدر، رفيع المكانة.

أقسام التَّواضُع:

(التَّواضُع تواضعان: أحدهما محمود، والآخر مذموم. والتَّواضُع المحمود: ترك التَّطاول على عباد الله والإزراء بهم. والتَّواضُع المذموم: هو تواضع المرء لذي الدُّنْيا رغبةً في دنياه، فالعاقل يلزم مفارقة التَّواضُع المذموم على الأحوال كلِّها، ولا يفارق التَّواضُع المحمود على الجهات كلِّها)[٣].

التَّواضُع المحمود على نوعين:

النَّوع الأوَّل: (تواضع العبد عند أمر الله امتثالًا، وعند نهيه اجتنابًا، فإنَّ النَّفس لطلب الرَّاحة تتلكأ في أمره، فيبدو منها نوع إباء وشِرَاد هربًا مِن العبوديَّة وتثبت عند نهيه طلبًا للظَّفر بما مُنِع منه، فإذا وضع العبد نفسه لأمر الله ونهيه فقد تواضع للعبوديَّة.

والنَّوع الثَّاني: تواضعه لعظمة الرَّب وجلاله وخضوعه لعزَّته وكبريائه، فكلَّما شمخت نفسه ذكر عظمة الرَّب تعالى وتفرُّده بذلك، وغضبه الشَّديد على مَن نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسه، وانكسر لعظمة الله قلبه، واطمأنَّ

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٦١).
(٢) ((المصدر السابق)).
(٣) ((المصدر السابق)) (ص ٥٩).

لهيبته وأخبت لسلطانه، فهذا غاية التَّواضُع، وهو يستلزم الأوَّل مِن غير عكس، والمتواضع -حقيقةً- مَن رُزِق الأمرين، والله المستعان)[(١)].

التَّواضُع المذموم:

قال ابن القيِّم: (ومِن التَّواضُع المذموم: المهانة. والفرق بين التَّواضُع والمهانة: أنَّ التَّواضُع يتولَّد مِن بين العلم بالله سبحانه ومعرفة أسمائه وصفاته ونعوت جلاله، وتعظيمه ومحبَّته وإجلاله، ومِن معرفته بنفسه وتفاصيلها وعيوب عملها وآفاتها، فيتولَّد مِن بين ذلك كلِّه خُلُقٌ هو التَّواضُع وهو انكسار القلب لله، وخفض جناح الذُّل والرَّحمة بعباده، فلا يرى له على أحدٍ فضلًا، ولا يرى له عند أحدٍ حقًّا، بل يرى الفضل للنَّاس عليه، والحقوق لهم قِبَلَه، وهذا خُلُقٌ إنَّما يعطيه الله عزَّ وجلَّ مَن يحبُّه ويكرمه ويقرِّبه.

وأمَّا المهانة: فهي الدَّناءة والخِسَّة، وبذل النَّفس وابتذالها في نيل حظوظها وشهواتها، كتواضع السِّفَل في نيل شهواتهم، وتواضع المفعول به للفاعل، وتواضع طالب كلِّ حظٍّ لمن يرجو نيل حظِّه منه، فهذا كلُّه ضِعَةٌ لا تواضع، والله سبحانه يحبُّ التَّواضُع، ويبغض الضِّعَة والمهانة، وفي الصَّحيح عنه: وأُوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحدٍ، ولا يبغي أحدٌ على أحدٍ[(٢)])[(٣)].

درجات التَّواضُع:

ذكر أبو إسماعيل الهرويُّ للتواضع ثلاث درجات، فقال:

(**الدَّرجة الأولى**: التَّواضُع للدِّين، وهو أن لا يعارِض بمعقولٍ منقولًا، ولا

---

(١) ((الروح)) لابن القيِّم (ص ٢٣٤).

(٢) رواه مسلم (٢٨٦٥) مِن حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

(٣) ((الروح)) (ص ٢٣٤).

يتَّهم للدِّين دليلًا، ولا يرى إلى الخلاف سبيلًا)[١].

قال ابن القيِّم: (التَّواضُع للدِّين: هو الانقياد لما جاء به الرَّسول، والاستسلام له والإذعان، وذلك بثلاثة أشياء:

الأوَّل: أن لا يعارِض شيئًا ممَّا جاء به بشيء مِن المعارَضَات الأربعة السَّارية في العالم المسمَّاة: بالمعقول والقياس والذَّوق والسِّياسة.

فالأولى: للمنحرفين أهل الكِبْر مِن المتكلِّمين، الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا: إذا تعارض العقل والنَّقل: قدَّمنا العقل وعزلنا النقل؛ إمَّا عزل تفويض، وإمَّا عزل تأويل، والثَّاني: للمتكبِّرين مِن المنتسبين إلى الفقه، قالوا: إذا تعارض القياس والرَّأي والنُّصوص: قدَّمنا القياس على النَّص ولم نلتفت إليه، والثَّالث: للمتكبِّرين المنحرفين مِن المنتسبين إلى التَّصوف والزُّهد، فإذا تعارض عندهم الذَّوق والأمر: قدَّموا الذَّوق والحال، ولم يعبؤوا بالأمر، والرَّابع: للمتكبِّرين المنحرفين مِن الولاة والأمراء الجائرين، إذا تعارضت عندهم الشَّريعة والسِّياسة: قدَّموا السِّياسة ولم يلتفتوا إلى حكم الشَّريعة، فهؤلاء الأربعة: هم أهل الكِبْر. والتَّواضُع: التَّخلُّص مِن ذلك كلِّه.

الثَّاني: أن لا يتَّهم دليلًا مِن أدلَّة الدِّين، بحيث يظنُّه فاسد الدِّلالة أو ناقص الدِّلالة أو قاصرها، أو أنَّ غيره كان أولى منه، ومتى عَرَض له شيء مِن ذلك فليتَّهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه والبليَّة فيه، كما قيل:

وكم من عائب قولًا صحيحًا ... وآفته مِن الفهم السَّقيم
ولكن تأخذ الأذهان منه ... على قدر القرائح والفهوم

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٣/١٢٠).

وهكذا الواقع في الواقع حقيقةً: أنَّه ما اتَّهم أحدٌ دليلًا للدِّين إلَّا وكان المتَّهم هو الفاسد الذِّهن، المأفون في عقله وذهنه، فالآفة مِن الذِّهن العليل لا في نفس الدِّليل، وإذا رأيت مِن أدلَّة الدِّين ما يُشْكل عليك وينبو فهمك عنه، فاعلم أنَّه لعظمته وشرفه استعصى عليك، وأنَّ تحته كنزًا مِن كنوز العلم، ولم تؤتَ مفتاحه بَعْدُ، هذا في حق نفسك، وأمَّا بالنِّسبة إلى غيرك: فاتَّهم آراء الرِّجال على نصوص الوحي، وليكن ردُّها أيسر شيء عليك للنصوص، فما لم تفعل ذلك فلست على شيء ولو.. ولو..، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء، قال الشَّافعي -قدَّس الله روحه-: أجمع المسلمون على أنَّ مَن استبانت له سنَّة رسول الله: لم يحلَّ له أن يدعها لقول أحد.

الثَّالث: أن لا يجد إلى خلاف النَّص سبيلًا البتَّة: لا بباطنه ولا بلسانه ولا بفعله ولا بحاله، بل إذا أحسَّ بشيء مِن الخلاف: فهو كخلاف المقْدِم على الزِّنا وشرب الخمر وقتل النَّفس، بل هذا الخلاف أعظم عند الله مِن ذلك، وهو داع إلى النِّفاق، وهو الذي خافه الكبار والأئمة على نفوسهم.

واعلم أنَّ المخالف للنَّص لقول متبوعه وشيخه ومقلَّده، أو لرأيه ومعقوله وذوقه وسياسته، إن كان عند الله معذورًا -ولا والله ما هو بمعذور- فالمخالف لقوله -لنصوص الوحي- أولى بالعذر عند الله ورسوله وملائكته والمؤمنين مِن عباده.

فوا عجبًا إذا اتَّسع بطلان المخالفين للنُّصوص لعذر مَن خالفها تقليدًا أو تأويلًا أو لغير ذلك، فكيف ضاق عن عذر مَن خالف أقوالهم وأقوال شيوخهم لأجل موافقة النُّصوص؟! وكيف نصبوا له الحبائل وبغوه الغوائل ورموه بالعظائم، وجعلوه أسوأ حالًا مِن أرباب الجرائم؟! فرموه بدائهم وانسلوا منه

لواذًا، وقذفوه بمصابهم وجعلوا تعظيم المتبوعين ملاذًا لهم ومعاذًا، والله أعلم)[١].

قال صاحب المنازل: (ولا يصحُّ ذلك إلَّا بأن يعلم: أنَّ النَّجاة في البصيرة والاستقامة بعد الثِّقة وأنَّ البيِّنة وراء الحجَّة)[٢].

قال ابن القيِّم: (يقول: إنَّ ما ذكرناه مِن التَّواضُع للدِّين بهذه الأمور الثَّلاثة:

الأولى: علمه أنَّ النَّجاة مِن الشَّقاء والضَّلال: إنَّما هي في البصيرة، فمن لا بصيرة له: فهو مِن أهل الضَّلال في الدُّنْيا والشَّقاء في الآخرة، والبصيرة نور يجعله الله في عين القلب، يفرِّق به العبد بين الحقِّ والباطل، ونسبته إلى القلب: كنسبة ضوء العين إلى العين، وهذه البصيرة وهبيَّة وكسبيَّة، فمَن أدار النَّظر في أعلام الحقِّ وأدلَّته، وتجرَّد لله مِن هواه: استنارت بصيرته، ورُزِق فُرْقَانًا يفرِّق به بين الحقِّ والباطل.

الثَّاني: أن يعلم أنَّ الاستقامة إنَّما تكون بعد الثِّقة، أي لا يُتصور حصول الاستقامة في القول والعمل والحال إلَّا بعد الثِّقة بصحَّة ما معه مِن العلم، وأنَّه مقتبسٌ مِن مشكاة النُّبوَّة، ومَن لم يكن كذلك فلا ثقة له ولا استقامة.

الثَّالث: أن يعلم أنَّ البيِّنة وراء الحجَّة، والبيِّنة مراده بها: استبانة الحقِّ وظهوره، وهذا إنَّما يكون بعد الحجَّة إذا قامت، استبان الحقُّ وظهر واتَّضح، وفيه معنى آخر وهو: أنَّ العبد إذا قَبِل حجَّة الله بمحض الإيمان والتَّسليم والانقياد: كان هذا القبول هو سبب تبيُّنها وظهورها وانكشافها لقلبه، فلا يصبر على بينة ربِّه إلَّا بعد قبول حجَّته.

وفيه معنى آخر أيضًا: أنَّه لا يتبيَّن له عيب عمله مِن صحَّته إلَّا بعد العلم

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) (٣/ ١٢٠).

(٢) ((المصدر السابق)) (٣/ ١٢٤).

الذي هو حجَّة الله على العبد، فإذا عرف الحجَّة اتَّضح له بها ما كان مشكلًا عليه مِن علومه، وما كان معيبًا مِن أعماله.

وفيه معنى آخر أيضًا: وهو أن يكون وراء بمعنى: أمام، والمعنى: أنَّ الحجَّة إنَّما تحصل للعبد بعد تبيُّنها، فإذا لم تتبيَّن له لم تكن له حجُّة، يعني: فلا يقنع مِن الحجَّة بمجرَّد حصولها بلا تبيُّن، فإنَّ التَّبيُّن أمام الحجَّة، والله أعلم)[1].

قال صاحب المنازل: (الدَّرجة الثَّانية: أن ترضى بما رضي الحقُّ به لنفسه عبدًا مِن المسلمين أخًا، وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا، وأن تقبل مِن المعتذر معاذيره)[2].

قال ابن القيِّم: (يقول: - أي: الهروي- إذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدًا، أفلا ترضى أنت به أخًا؟! فعدم رضاك به أخًا -وقد رضيه سيِّدك، الذي أنت عبده، عبدًا لنفسه- عين الكِبْر، وأيُّ قبيح أقبح مِن تكبُّر العبد على عبدٍ مثله، لا يرضى بأخوَّته، وسيِّده راض بعبوديَّته؟!

فيجيء مِن هذا: أنَّ المتكبِّر غير راض بعبوديَّة سيِّده؛ إذ عبوديَّته توجب رضاه بأخوَّة عبده، وهذا شأن عبيد الملوك: فإنَّهم يرون بعضهم خشداشية[3] بعض. ومَن ترفَّع منهم عن ذلك: لم يكن مِن عبيد أستاذهم.

قوله: (وأن لا تردَّ على عدوِّك حقًّا) أي: لا تصحُّ لك درجة التَّواضُع حتى تقبل الحقَّ ممَّن تحبُّ وممَّن تبغض، فتقبله مِن عدوِّك كما تقبله مِن وليِّك،

(١) ((مدارج السَّالكين)) (١٢٤/٣).
(٢) ((المصدر السابق)) (١٢٦/٣).
(٣) الخشداش: لفظ فارسي معناه: الزَّميل في الخدمة، والخشداشية: هم الأمراء الذين نشؤوا مماليك عند سيِّدٍ واحد فنبتت بينهم رابطة الزَّمالة، ((هامش المصدر السابق)).

وإذا لم تردَّ عليه حقَّه، فكيف تمنعه حقًّا له قِبَلَك، بل حقيقة التَّواضُع: أنَّه إذا جاءك قَبِلْتَه منه، وإذا كان له عليك حقٌّ: أدَّيته إليه، فلا تمنعك عداوته مِن قبول حقِّه، ولا مِن إيتائه إيَّاه.

وأمَّا (قبولك مِن المعتذر معاذيره) فمعناه: أنَّ مَن أساء إليك، ثمَّ جاء يعتذر مِن إساءته، فإنَّ التَّواضُع يوجب عليك قبول معذرته حقًّا كانت أو باطلًا، وتكل سريرته إلى الله تعالى كما فعل رسول الله في المنافقين الذين تخلَّفوا عنه في الغزو، فلمَّا قدم جاءوا يعتذرون إليه، فقَبِل أعذارهم ووَكَل سرائرهم إلى الله تعالى، وعلامة الكَرَم والتَّواضُع: أنَّك إذا رأيت الخلل في عذره لا توقفه عليه ولا تحاجه، وقُلْ: يمكن أن يكون الأمر كما تقول، ولو قُضِي شيءٌ لكان، والمقدور لا مدفع له. ونحو ذلك)[١].

قال صاحب المنازل أبو إسماعيل الهروي: (الدَّرجة الثَّالثة: أن تتَّضع للحقِّ، فتنزل عن رأيك وعوائدك في الخدمة، ورؤية حقِّك في الصُّحبة، وعن رسمك في المشاهدة)[٢].

قال ابن القيِّم: (يقول:-أي: الهروي- التَّواضُع، بأن تخدم الحقَّ سبحانه وتعبده بما أمرك به على مقتضى أمره لا على ما تراه مِن رأيك، ولا يكون الباعث لك داعي العادة، كما هو باعث مَن لا بصيرة له، غير أنَّه اعتاد أمرًا فجرى عليه، ولو اعتاد ضدَّه لكان كذلك)[٣].

---

(١) ((مدارج السَّالكين)) (١٢٦/٣).
(٢) ((المصدر السابق)) (١٢٧/٣).
(٣) ((المصدر السابق)).

صور التَّواضُع[١]:

١- تواضع الإنسان في نفسه:

ويكون ذلك بألَّا يظنَّ أنَّه أعلم مِن غيره، أو أتقى مِن غيره، أو أكثر ورعًا مِن غيره، أو أكثر خشية لله مِن غيره، أو يظنُّ أنَّ هناك مَن هو شرٌّ منه، ولا يظنُّ أنَّه قد أخذ صكًّا بالغفران!! وآخر بدخول الجنَّة!! لأنَّ القلوب بين إصبعين مِن أصابع الرَّحمن، يقلِّبها كيف يشاء، يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال أبو زيد: ما دام العبد يظنُّ أنَّ في الخَلْق مَن هو شرٌّ منه فهو متكبِّر، فقيل له: فمتى يكون متواضعًا؟ قال: إذا لم ير لنفسه مقامًا ولا حالًا.

ومِن التَّواضُع ألَّا يَعْظُم في عينك عملك، إن عملت خيرًا، أو تقرَّبت إلى الله تعالى بطاعة، فإنَّ العمل قد لا يُقْبَل، و﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] ولهذا قال بعض السَّلف: لو أعلم أنَّ الله قبل منِّي تسبيحة لتمنَّيت أن أموت الآن!

ومِن ذلك: التَّواضُع عندما تسمع نصيحة، فإنَّ الشَّيطان يدعوك إلى ردِّها، وسوء الظَّنِّ بالنَّاصح؛ لأنَّ معنى النَّصيحة أنَّ أخاك يقول لك: إنَّ فيك مِن العيوب كيت وكيت.

وكم مرَّة أتعبتكم بنصيحتي   وقد يستفيد البُغْضَةَ المتنَصِّحُ

أمَّا مَن عصمه الله تعالى فإنَّه إذا وجد مَن ينصحه ويدلُّه على عيوبه، قهر نفسه وقبل منه، ودعا له وشكره، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم، في تعريف

---

(١) انظر: ((الأخلاق الإسلاميَّة ودورها في بناء المجتمع)) لجمال نصَّار (ص ٢٣٨)، ((دروس إيمانية في الأخلاق الإسلاميَّة)) لخميس السعيد (ص ٣٩).

الكِبْر: ((الكِبْر: بَطَر الحقِّ، وغمط النَّاس))[(١)].

يعني: ردُّ الحقِّ، وبخس النَّاس أشياءهم. فالمستكبر صاحب نفسيَّة متعاظمة لا يكاد يمدح أحدًا أو يذكره بخير، وإن احتاج إلى ذلك شفعه بذكر بعض عيوبه.

أمَّا إن سمع مَن يذكره ببعض عيوبه فهيهات أن ينصاع أو يلين، وما ذاك إلَّا لمركَّب النَّقص في نفسه، ولهذا كان مِن كمال الإنسان أن يقبل النَّقد والملاحظة بدون حساسيَّة أو انزعاج أو شعور بالخَجَل والضَّعف، وها هو أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه يحمل الرَّاية، ويرفع الشِّعار: رحم الله امرءًا أهدى إلينا عيوبنا[(٢)].

٢- التَّواضُع في التعلُّم:

قال الشَّافعي: لا يطلب هذا العلم أحدٌ بالمُلْك وعزَّة النَّفس فيفلح، لكن مَن طلبه بذلَّة النَّفس، وضيق العيش، وخدمة العلم، وتواضع النَّفس أفلح.

وعن الأصمعي قال: مَن لم يتحمَّل ذلَّ التَّعلُّم ساعة، بقي في ذلِّ الجهل أبدًا.

قال عبد الله بن المعتز: المتواضع في طلب العلم أكثرهم علمًا، كما أنَّ المكان المنخفض أكثر البقاع ماء.

وقد نَظَم أبو عامر النَّسويُّ فقال:

العلم يأتي كلَّ ذي ... خفض، ويأبى كلَّ آبي

كالماء ينزل في الوِهَا ... د، وليس يصعد في الرَّوابي

(١) رواه مسلم (٩١) مِن حديث ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه الدارمي (١/٥٠٦).

وكذلك ينبغي أن يتحمَّل الطَّالب ما يكون مِن الشَّيخ أو مِن بقيَّة الطَّلبة لئلَّا يفوته العلم، فتفوته الدُّنْيا والآخرة، مع حصول العدو وطلبه، وشماتة الأعداءِ مِن الأربعة الأمور بالاستعاذة منهنَّ في الصَّحيحين في قوله عليه السَّلام: ((تعوَّذوا بالله مِن جهد البلاء، ودَرَك الشَّقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء))(١).

وقد قيل:

لمحبرة تجالسني نهاري ... أحبُّ إليَّ مِن أنس الصَّديق
ورزمة كاغد في البيت عندي ... أعزُّ إليَّ مِن عدل الرَّقيق
ولطمة عالم في الخدِّ منِّي ... ألذُّ إليَّ مِن شرب الرَّحيق(٢)

وقال الشَّافعي: غضب الأعمش يومًا على رجل مِن الطَّلبة، فقال آخر: لو غضب عليَّ مثلك لم أعد إليه. فقال له الأعمش: إذًا هو أحمق مثلك، يترك ما ينفعه لسوء خلقي. ذكره البيهقي(٣).

أحيانًا تسمع من بعض المبتدئين في العلم -ممن لا يقدر للعلماء السابقين قدرهم، ولا يعرف منزلتهم وفضلهم- ربما تسمع منه متطاولًا: هم رجال، ونحن رجال. فأولى بهذا المسكين أن يعرف قدر نفسه، وأن يقرأ سير هؤلاء العلماء؛ ليعرف من هو ومن هم؛ في الحفظ والقراءة والعلم والتعليم والعمل والعبادة، ففرق بين الثرى والثريا.

---

(١) رواه البخاري (٦٦١٦)، ومسلم (٢٧٠٧) مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) الرحيق: من أسماء الخمر معروف؛ قال ابن سيده: وهو من أعتقها وأفضلها. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١١٤/١٠).
(٣) ((الآداب الشَّرعية)) لابن مفلح (١١١/٢-١١٥).

فإذا كان هذا القول لا يقبل من العلماء أو من طلبة العلم الكبار في هذا الزمان فكيف بطلاب العلم الصغار والمبتدئين؟!

يقولون: هذا عندنا غير جائز!! ومَن أنتم حتى يكون لكم (عندُ)!!

جلس الشَّافعي ذات يوم مع تلميذه أحمد بن حنبل، فنظر إليه وقال:

أحبُّ الصَّالحين ولست منهم لعلِّي أن أنال بهم شفاعه

وأكره مَن تجارتهم معاصي وإن كنَّا سويًّا في البضاعه

فنظر إليه تلميذه أحمد، ثمَّ قال:

تحبُّ الصَّالحين وأنت منهم ومنكم سوف يلقون الشَّفاعة

وتكره مَن تجارتهم معاصي وقاك الله مِن شرِّ البضاعة

٣- التَّواضُع مع النَّاس:

فالمسلم يخالط النَّاس ويدعوهم إلى الخير، وإلى الأخلاق الإسلاميَّة، ومِن طبيعة النَّاس أنَّهم لا يقبلون قول مَن يعظِّم نفسه ويحقرهم، ويرفع نفسه ويضعهم، وإن كان ما يقوله حقًّا، بل عليه أن يعرف أنَّ جميع ما عنده هو فضلٌ مِن الله، فالمسلم المتواضع هو الذي لا يعطي لنفسه حظًّا في كلامه مع الآخرين، ومِن تواضع المسلم مع النَّاس: أن يجالس كلَّ طبقات المجتمع، ويكلِّم كلًّا بما يفهمه، ويجالس الفقراء والأغنياء.

قال تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

٤- التَّواضُع مع الأقران:

ومِن التَّواضُع: تواضع المسلم مع قرينه؛ وذلك لأنه كثيرًا ما تشتعل المنافسة ويقع التَّحاسد بينهم، وربَّما يؤدي ذلك إلى نوع من استعلاء بعضهم على بعض، ثم محاولة الحط من قدر قرينه، والتنقص منه بأي صورة من الصور، أو السعي في النيل منه، وقد يلبس عليه الشيطان ذلك ويلبسه لبوس النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥- تواضع الإنسان مع مَن هو دونه:

مِن التَّواضُع: التواضع مع من هو أقل منك، بل لا يُتصوَّر التواضع إلا مع من هو دونك، سواء في العلم أو الفهم أو المال أو الجاه ومن هو أصغر منك سنا وغير ذلك، بل إذا رأيت من وقع في معصية فلا تتعالى عليه وتعجب بنفسك وعملك، فربما كانت معصيته سببًا في توبة وإنابة، وذل وانكسار، وربما كان إعجاب الإنسان بعمله سببًا في حبوط عمله.

عن جندب رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حدَّث: ((أنَّ رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان. وأنَّ الله تعالى قال: مَن ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان؟! فإنِّي قد غفرت لفلان وأحبطت عملك))[١].

٦- تواضع صاحب المال:

فإنَّ مَن مَنَّ الله عليهم بالمال، والجاه، والقوَّة، والنُّفوذ، أحوج الخَلْق إلى خُلُق التَّواضُع؛ لأنَّ هذه النِّعم مدعاة إلى الكِبْر والفخر.

وما ابتليت الأمَّة بمصيبة الكِبْر إلَّا مِن هؤلاء، ولو نظر صاحب المال -مثلًا- إلى سالف أمره، لكان أجدر به إذا ما رُزِق مالًا أن يشكر ربَّه الذي

---

(١) رواه مسلم (٢٦٢١).

أغناه بعد فقر، وأعطاه بعد حرمان، وأشبعه بعد جوع، وأمَّنه بعد خوف، وأن يجعل التَّواضُع فراشه، ودثاره، وزينته، هذا هو الشُّكر العملي الحقيقي.

أمَّا أن يتكبَّر وهذا حاله، فلا أدري بم يوصف هذا الإنسان، وقد بدِّلت لديه المفاهيم والموازين.

وكذلك يقال لصاحب كلِّ نعمة: عليك بالتَّواضُع، فلربَّما دارت عليك الأيام، وبُدِّل الحال.

٧- تواضع القائد مع الأفراد:

القائد النَّاجح هو الذي يخفض جناحه للأفراد الذين تحت إمرته؛ لأنَّه كلَّما تواضع لهم وخفض لهم جناحه كان أقرب إلى نفوسهم، وكان أمره لهم محببًّا إليهم، فهم يطيعونه عن حبٍّ وإخلاص، يقول تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشُّعراء: ٢١٥].

ومِن مظاهر هذا التَّواضُع، عدم الاستبداد بالرَّأي والانفراد باتخاذ القرار، وذلك أنَّ استفراغ ما عند الأفراد مِن آراء وأفكار لا شكَّ أنَّ ذلك يفتح أبوابًا كانت مغلقة على القادة، والاستماع إليها والنُّزول عن الرَّأي إليها - إذا كانت صحيحة - تقلِّل مِن نسبة الخطأ في القرار، وببركة الشُّورى قد يجبر الله ما بها مِن قصور، ولله درُّ القائل:

رأي الجماعة لا تشقى البلاد به ... رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

وألَّا يجد القادة في نفوسهم شيئًا إذا تحوَّلوا إلى جنود أو أفراد في الصَّفِّ بعد أن كانوا قادة؛ وذلك لأنَّ الأجر والثَّواب يكون بالإخلاص والتجرُّد، والصِّدق مع الله.

وكما يقول الفضيل بن عياض: (مَن أحبَّ الرِّياسة لم يفلح أبدًا)، ولا شكَّ أنَّ المؤمن كلَّما ازداد تواضعًا ازداد إيمانًا بالله وقربًا منه، وكلَّما ازداد عتوًّا وترفُّعًا على النَّاس، ازداد مقتًا وبعدًا منه سبحانه.

الأسباب التي تعين على التَّواضُع:

١- تقوى الله:

وهذا مِن أوَّل الأمور والأسباب التي تعين المرء على التَّواضُع، وتردعه عن أخلاق أهل السَّفه والكِبْر؛ لأنَّ التَّقوى وقاية مِن كلِّ ما يغضب الله تعالى، وفعل جميع الطَّاعات التي أمر الله تعالى بها، فالكِبْر كبيرة مِن الكبائر، ولا يتَّصف بها أهل التَّقوى، والتَّواضُع مِن محاسن الأخلاق، ولابدَّ أنَّه يكون في أهل التَّقوى.

وهذا شيء يجب أن يكون مركوزًا في فطرة كلِّ إنسان، وخاصَّة إذا كان بالمرء تيه وعجب، عليه أن يعلم أنَّ الأيَّام دُوَل، يوم لك ويوم عليك، فلا ينبغي للعاقل أن يفرح بدنيا أقبلت عليه، ومِن ثَمَّ يشمخ بها، ويتعالى بنعم الله على عباد الله، والله يقول: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فمَن تذكَّر دائمًا هذه السُّنَّة الكونيَّة خضع لإخوانه ولعامَّة النَّاس، وخفض جناحه لهم، لأنَّه ربَّما تقلَّبت به الدُّنْيا، فيذلُّ بعد أن كان عزيزًا، ويفتقر بعد أن كان غنيًّا، ويعلو عنه مَن كان يترفَّع عليه، فلِمَ الكِبْر والتِّيه والعجب؟!

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

٢- عامل النَّاس بما تحبُّ أن يعاملوك به:

ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ المرء يحبُّ أن يتواضع له النَّاس، ويخفضوا جناحهم له، ويعاملوه برفق ولين، ويبغض -مِن ناحيةٍ أخرى- مَن يُغْلِظ له، ومَن يتكبَّر عليه بأي صورة مِن الصُّور.

ولو كان المرء جرابًا حُشِي كِبرًا لتألَّم وتأفَّف -أيضًا- ممَّن يتكبَّر عليه، فلِمَ الكيل بمكيالين؟!!

٣- التَّفكُّر في أصل الإنسان[1]:

إذا عرف الإنسان نفسه، علم أنَّه أذلُّ مِن كلِّ ذليل، ويكفيه نظرة في أصل وجوده بعد العدم مِن تراب، ثمَّ مِن نطفة خرجت مِن مخرج البول، ثمَّ مِن علقة، ثمَّ مِن مضغة، فقد صار شيئًا مذكورًا، بعد أن كان لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني شيئًا، فقد ابتدأ بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوَّته، وبفقره قبل غناه.

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى هذا بقوله:

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٨-١٩].

ثمَّ امتنَّ عليه بقوله: ﴿ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴾ [عبس: ٢٠].

وبقوله: ﴿ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢].

لقد أحياه الله بعد موت، وأحسن تصويره، وأخرجه إلى الدُّنْيا، فأشبعه وأرواه، وكساه وهداه، وقوَّاه.

فمِن هذا بدايته، فأي وجه لتكبُّره وفخره وخيلائه؟!

---

(١) ((التواضع في ضوء القرآن والسُّنَّة الصَّحيحة)) لسليم الهلالي (٣١، ٣٢).

قال ابن حبَّان:

(وكيف لا يتواضع مَن خُلِق مِن نطفة مَذِرَة، وآخره يعود إلى جيفة قذرة، وهو بينهما يحمل العذرة؟). اهـ[١].

٤- معرفة الإنسان قَدْرَه:

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧].

(أي: أنت أيُّها المتكَبِّر المختال ضعيف حقير عاجز محصور بين جمادين أنت عاجز عن التَّأثير فيها، فالأرض التي تحتك لا تقدر أن تؤثِّر فيها بشدَّة وطئك عليها، والجبال الشَّامخة فوقك لا يبلغ طولك طولها، فاعرف قَدْرَك، ولا تتكبَّر، ولا تمش في الأرض مرحًا). اهـ[٢].

٥- تذكُّر الأمراض والأوجاع والمصائب:

(ما أجمل التَّواضُع واللِّين!!

فلو رأيت أهل البلاء بشتَّى صنوفهم للمست التَّواضُع يعلو وجوههم وأبدانهم!

انظر إلى مَن غلَّه المرض، واستوثق منه الوجع، وهدَّه الألم، انظر إليه إذا جاء الزَّائر يزوره! وطالع محيَّاه، فسترى فاقة وكسرة وحاجة إلى كلِّ إنسان!

فهو يأنس بهذا! ويشدُّ على يد هذا! ويطلب الدُّعاء مِن آخر! ويتشوَّف إلى رنين الهاتف، فلربَّما سمع كلمة تشدُّ مِن أزره، أو ربَّما سعد بدعوة مجابة

---

(١) ((روضة العقلاء)) لابن حبان البستي (ص ٦١).

(٢) ((أضواء البيان)) للشنقيطي (٥٩٢/٣).

أو... أليس في هذا الحال درس لكلِّ مَن اختال يومًا، أو تطاول حينًا، أو تكبَّر زمنًا؟!

بلى والله.

وما قيل هنا، يقال في أهل المصائب كافَّة، فلماذا التَّجمُّل بالتَّواضُع عند الضُّرِّ، والافتخار والمباهاة والأشر والكِبْر عند الرَّخاء والنِّعمة في العلن والسِّرِّ؟!

٦- تطهير القلب:

القلب إذا صَلح صَلحَ العمل كلُّه بإذن الله تعالى، فعلى مَن أراد اكتساب خُلُق التَّواضُع أن يطهِّر قلبه مِن الأمراض التي عصفت به مِن حقدٍ وحسدٍ وعجبٍ وغرورٍ؛ لأنَّ القلب هو موطن هذه الأمراض كلِّها)[١].

نماذج في التَّواضُع:

- **نماذج مِن تواضع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم:**

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جمَّ التَّواضُع، لا يعتريه كِبرٌ ولا بَطَرٌ على رِفْعَة قَدْرِه وعلوِّ منزلته، يخفض جناحه للمؤمنين ولا يتعاظم عليهم، ويجلس بينهم كواحد منهم، ولا يُعْرَف مجلسه مِن مجلس أصحابه؛ لأنَّه كان يجلس حيث ينتهي به المجلس، ويجلس بين ظهرانيهم فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل عنه، روى أبو داود في سننه عن أبي ذرٍّ وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس بين ظهري أصحابه فيجيء الغريب فلا يدري أيُّهم هو حتى يسأل، فطلبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نجعل له مجلسًا يعرفه الغريب إذا أتاه...))[٢].

(١) ((دروس إيمانية في الأخلاق الإسلامية)) لخميس السعيد (ص ٦١) (بتصرُّف يسير).

(٢) رواه أبو داود (٤٦٩٨)، والنَّسائي (٤٩٩١). وسكت عنه أبو داود، وصحَّحه الألباني في ((صحيح أبي داود)) (٤٦٩٨).

وقال له رجل: يا محمَّد، أيا سيِّدنا وابن سيِّدنا، وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يا أيُّها النَّاس، عليكم بتقواكم، ولا يستهوينَّكم الشَّيطان، أنا محمَّد بن عبد الله، أنا عبد الله ورسوله، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله))(١).

- وكان صلى الله عليه وسلم مِن تواضعه، يتفقَّد أحوال أصحابه ويقوم بزيارتهم، فقد روى البخاريُّ في صحيحه عن عبد الله بن عمرو قال: ((إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذُكِر له صومي، فدخل علي فألقيت له وسادة مِن أَدَم(٢) حشوها ليف فجلس على الأرض، وصارت الوسادة بيني وبينه، فقال أما يكفيك مِن كلِّ شهرٍ ثلاثة أيَّام. قال: قلت: يا رسول الله! قال: خمسًا. قلت: يا رسول الله! قال: سبعًا. قلت: يا رسول الله! قال: تسعًا. قلت: يا رسول الله! قال: إحدى عشرة. ثمَّ قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: لا صوم فوق صوم داود -عليه السَّلام - شطر الدَّهر: صم يومًا وأفطر يومًا))(٣).

وكان يتفقَّدهم حتى في الغزوات والمعارك، ومِن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه مِن حديث أبي برزة: ((أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم كان في مغزى له، فأفاء الله عليه، فقال لأصحابه: هل تفقدون مِن أحدٍ. قالوا: نعم فلانًا وفلانًا وفلانًا. ثمَّ قال: هل تفقدون مِن أحدٍ. قالوا: نعم فلانًا وفلانًا وفلانًا. ثمَّ قال: هل تفقدون مِن أحدٍ؟ قالوا: لا. قال: لكنِّي أفقد جليبيبًا، فاطلبوه. فطُلِب في القتلى، فوجدوه إلى جنب سبعة قد قتلهم ثمَّ قتلوه، فأتى النَّبيُّ صلى

(١) رواه أحمد (١٥٣/٣) (١٢٥٧٣)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (١٠٣/٩) مِن حديث أنس رضي الله عنه. وجوَّد إسناده الشَّوكاني كما في ((الفتح الرباني)) (٣٣٦/١)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (٦١١/١).

(٢) أَدَم: الجلد المدبوغ. انظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (٣١٣/١٠).

(٣) رواه البخاري (١٩٨٠)، ومسلم (١١٥٩).

الله عليه وسلم فوقف عليه، فقال: قتل سبعة ثمَّ قتلوه، هذا منِّي وأنا منه، هذا منِّي وأنا منه. قال: فوضعه على ساعديه ليس له إلَّا ساعدا النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، قال: فحفر له ووضع في قبره))[(١)].

- وكان مِن تواضعه صلى الله عليه وسلم، القيام بخدمة أصحابه، روى مسلم في صحيحه مِن حديث أبي قتادة، وفيه -في قصَّة نومهم عن صلاة الفجر-: ((...قال ودعا بالميضأة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبُّ وأبو قتادة يسقيهم -أي أصحابه- فلم يَعْدُ أن رأى النَّاس ماءً في الميضأة تكابُّوا عليها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسنوا الْمَلَأَ[(٢)] كلُّكم سيرْوى. قال: ففعلوا. فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبُّ وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: ثمَّ صبَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لي اشرب. فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول الله. قال: إنَّ ساقي القوم آخرهم شربًا. قال: فشربت، وشرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فأتى النَّاس الماء جامِّين رِوَاء[(٣)]))[(٤)].

- ومِن تواضعه صلى الله عليه وسلم، أنَّه إذا مرَّ على الصِّبيان، سلَّم عليهم، فقد روى البخاريُّ ومسلم عن أنس رضي الله عنه: ((أنَّه مرَّ على صبيان فسلَّم عليهم، وقال: كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يفعله))[(٥)].

---

(١) رواه مسلم (٢٤٧٢).

(٢) الملأ: الخلق والعشرة. انظر: ((شرح مسلم)) للنووي (١٨٨/٥).

(٣) جامِّين رِوَاء: مستريحين قد رووا من الماء. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠٦/١٢).

(٤) رواه مسلم (٦٨١).

(٥) رواه البخاري (٦٢٤٧)، ومسلم (٢١٦٨).

((وكان صلى الله عليه وسلم يزور الأنصار، ويسلِّم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم))[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: ((إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخالطنا حتى يقول لأخٍ لي صغير: يا أبا عُمَيْر، ما فعل النُّغَير؟))[(٢)].

- ومِن تواضعه صلى الله عليه وسلم، أنَّه كان يشارك في خدمة أهله في البيت، فقد روى البخاريُّ عن الأسود، قال: ((سألت عائشة: ما كان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته؟ قالت: كان يكون في مِهْنَةِ أهله - تعني خدمة أهله -، فإذا حضرت الصَّلاة خرج إلى الصَّلاة))[(٣)].

- وكان مِن تواضعه صلى الله عليه وسلم، أنه يركب الحمار ويستردف فيه، يحكي لنا أنس رضي الله عنه عن حال النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم فيقول: ((كان صلى الله عليه وسلم يُرْدِف خلفه، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار))[(٤)].

وعن عبيد بن حنين أنَّه سمع ابن عبَّاس -رضي الله عنهما- يحدِّث أنَّه قال: ((مكثت سنة أريد أن أسأل عمر بن الخطَّاب عن آية، فما أستطيع أن أسأله هيبة له، حتى خرج حاجًّا فخرجت معه...))[(٥)]. الحديث. وفيه: ((وإنَّه -

(١) رواه ابن حبان (٢/٢٠٥)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٦/٢٩١)، والبغوي في ((شرح السنة)) (١٢/٢٦٤) مِن حديث أنس رضي الله عنه. وقال البغوي: حسن صحيح. وقال الألباني في ((السِّلسلة الصَّحيحة)) (٥/١٤٩): إسناده صحيح على شرط مسلم.
(٢) رواه البخاري (٦١٢٩)، ومسلم (٢١٥٠).
(٣) رواه البخاري (٦٧٦) مِن حديث عائشة رضي الله عنها.
(٤) رواه الحاكم (٤/١٣٢) (٧١٢٨). وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (٤٩٤٥).
(٥) رواه البخاري (٤٩١٣).

أي: رسول الله صلى الله عليه وسلم - لَعَلَى حصيرٍ ما بينه وبينه شيء وتحت رأسه وسادة مِنَ أَدَم حشوها ليف، وإنَّ عند رجليه قَرَظًا[١] مصبوبًا، وعند رأسه أَهَبٌ معلَّقة، فرأيت أثر الحصير في جنبه فبكيتُ، فقال: ما يبكيك؟ فقلت: يا رسول الله، إنَّ كِسْرَى وقيصر فيما هُمَا فيه وأنت رسول الله! فقال: أَمَا ترضى أن تكون لهم الدُّنْيا ولنا الآخرة))[٢].

- ومِن تواضعه صلى الله عليه وسلم: استجابته للدَّعوة، وقبوله الهديَّة مهما قلَّت قيمتها، روى البخاريُّ مِن حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: ((لو دُعِيت إلى ذراع أو كُرَاع لأجبت، ولو أُهْدِي إليَّ ذراع أو كراع لقَبِلت))[٣].

قال الشَّاعر:

يا جاعلًا سنن النَّبيِّ شعاره ودثاره
متمسِّكًا بحديثه متتبِّعًا أخباره
سنن الشَّريعة خذ بها متوسِّمًا آثاره
وكذا الطَّريقة فاقتبس في سبلها أنواره
قد كان يقري ضيفه كرمًا ويحفظ جاره
ويجالس المسكين يؤ ثر قربه وجواره
الفقر كان رداءه والجوع كان شعاره
يلقى بغرَّة ضاحك مستبشرًا زوَّاره

(١) القرظ: شجر يدبغ به، وقيل: هو ورق السلم يدبغ به الأدم. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٤٥٤/٧).
(٢) رواه البخاري (٤٩١٣).
(٣) رواه البخاري (٢٥٦٨).

بسط الرِّداء كرامةً ... لكريم قوم زاره
ما كان مختالًا ولا ... مرحًا يجرُّ إزاره
قد كان يركب بالرَّديـ ... ـف مِن الخضوع حماره
مِن مِهْنَة هو أو صلا ... ةٍ ليله ونهاره
فتراه يحلب شاة مَنْـ ... ـزِلِه ويوقد ناره
ما زال كهف مهاجريـ ... ـه ومكرمًا أنصاره
بـرًّا بمحسنهم مقيـ ... ـلًا للمسيء عثاره
يهب الذي تحوي يدا ... ه لطالبٍ إيثاره
زَكَّى عن الدُّنْيا الدنـ ... ـيَّة ربُّه مقداره
جعل الإله صلاته ... أبدًا عليه نثاره
فاختر مِن الأخلاق ما ... كان الرَّسول اختاره
لتعد سنيًّا وتو ... شك أن تبوَّأ داره(١)

- **نماذج مِن تواضع الصَّحابة رضوان الله عليهم:**

اقتداءً بالنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم كان صحابته رضوان الله عليهم يقومون بما كان يقوم به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم مِن الأعمال الجليلة والخُلُق الكريم مِن التَّواضُع وخفض الجناح.

(فكان أبوبكر رضي الله عنه يحلب الشَّاة لجيرانه، وكان عمر رضي الله عنه يحمل قربة الماء، وكان عثمان رضي الله عنه وهو يومئذ خليفة - يقيل في المسجد ويقوم وأثر الحصباء في جنبه، وكان عليٌّ رضي الله عنه يحمل التَّمر في

(١) ((نهاية الأرب في فنون الأدب)) للنُّويري (١٨/١٧٦).

ملحفة ويرفض أن يحمله عنه غيره، وكان أبو الدَّرداء ينفخ النَّار تحت القِدْر حتى تسيل دموعه.

وصفوة القول إنَّهم رضي الله عنهم ساروا على نهج الرَّسول الكريم، فلم يستكبر منهم أحدٌ، أو يستنكف عن القيام بتلك الأعمال اليسيرة النَّافعة مهما عَظُمَت مكانة الواحد منهم)[١].

تواضع الصِّدِّيق رضي الله عنه:

- (لما استُخلف أبو بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه أصبح غاديًا إلى السُّوق، وكان يحلب للحي أغنامهم قبل الخلافة، فلمَّا بُويِع قالت جارية مِن الحي: الآن لا يحلب لنا. فقال: بلى لأحلبنَّها لكم، وإنِّي لأرجو ألَّا يغيِّرني ما دخلت فيه)[٢].

- وكان يقول: (وددت أنِّي شعرة في جنب عبد مؤمن)[٣].

قال هذا وهو مِن المبشَّرين بالجنَّة، وهو الصِّدِّيق العظيم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخليفته مِن بعده!!

تواضع عمر رضي الله عنه:

- عن طارق بن شهاب، قال: (خرج عمر بن الخطَّاب إلى الشَّام ومعنا أبو عبيدة بن الجرَّاح، فأَتَوا على مخاضة[٤] وعمر على ناقة له، فنزل عنها وخلع خفَّيه فوضعهما على عاتقه، وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة، فقال

---

(١) ((الأخلاق الإسلاميَّة)) لجمال نصار - بتصرُّف - (ص ٢٣٧).

(٢) ((التبصرة)) لابن الجوزي (ص ٤٠٨).

(٣) رواه أحمد في ((الزُّهد)) (٩٠) رقم (٥٦٠)، وذكره ابن الجوزي في ((المنتظم)) (٤/٦٣) مِن حديث أبي عمر الجوني رحمه الله.

(٤) المخاضة: ما جاز الناس فيه مشاة وركبانا، وهو الموضع الذي يتخضخض ماؤه فيخاض عند العبور. انظر: ((تاج العروس)) للزبيدي (١٨/٣٢٢).

أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! أنت تفعل هذا، تخلع خفَّيك وتضعهما على عاتقك، وتأخذ بزمام ناقتك، وتخوض بها المخاضة؟! ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك. فقال عمر: أوَّه، لم يقل ذا غيرك أبا عبيدة جعلته نكالًا لأمَّة محمَّد صلى الله عليه وسلم إنَّا كنَّا أذلَّ قوم، فأعزَّنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العزَّة بغير ما أعزَّنا الله به أذلَّنا الله)[١].

- عن أبي محذورة قال: (كنت جالسًا عند عمر رضي الله عنه، إذ جاء صفوان بن أميَّة بجَفْنَة[٢] يحملها نفرٌ في عباءة، فوضعوها بين يدي عمر، فدعا عمر ناسًا مساكين وأرقَّاء مِن أرقَّاء النَّاس حوله، فأكلوا معه، ثمَّ قال عند ذلك: فعل الله بقوم، أو قال: لحى الله قومًا يرغبون عن أرقَّائهم أن يأكلوا معهم!! فقال صفوان: أما والله، ما نرغب عنهم، ولكنَّا نستأثر عليهم، لا نجد والله مِن الطَّعام الطَّيِّب ما نأكل ونطعمهم)[٣].

- وعن عروة بن الزُّبير رضي الله عنهما قال: (رأيت عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه على عاتقه قربة ماء، فقلت: يا أمير المؤمنين! لا ينبغي لك هذا. فقال: لما أتاني الوفود سامعين مطيعين دَخَلَت نفسي نخوة، فأردت أن أكسرها)[٤].

تواضع عثمان رضي الله عنه:

قال الحسن: (رأيت عثمان بن عفان يقيل في المسجد وهو يومئذ خليفة،

(١) رواه الحاكم (١٣٠/١) (٢٠٧). وقال: صحيح على شرط الشَّيخين. ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (٢٨٩٣).
(٢) الجفنة كالقصعة.
(٣) رواه البخاري في ((الأدب المفرد)) (٢٠١)، والحسين بن حرب في ((البر والصلة)) (١٨٢). وصحَّحه الألباني في ((صحيح الأدب المفرد)) (١٤٨).
(٤) ذكره القشيري في ((الرسالة القشيرية)) (٢٧٩/١).

ويقوم وأثر الحصى بجنبه، فنقول: هذا أمير المؤمنين، هذا أمير المؤمنين)[١].

عن ميمون بن مهران قال: (أخبرني الهمدانيُّ أنَّه رأى عثمان بن عفان رضي الله عنه على بغلة، وخلفه عليها غلامه نائل وهو خليفة)[٢].

تواضع علي رضي الله عنه:

- عن عمرو بن قيس الملائي عن رجل منهم قال: (رُئِي على علي بن أبي طالب إزارٌ مرقوعٌ، فقيل له: تلبس المرقوع؟! فقال: يقتدي به المؤمن ويخشع به القلب)[٣].

- (وأنَّه رضي الله عنه قد اشترى لحمًا بدرهم، فحمله في ملحفته، فقيل له: نحمل عنك يا أمير المؤمنين. فقال: لا، أبو العيال أحقُّ أن يحمل)[٤].

تواضع عبد الله بن سلام رضي الله عنه:

- مرَّ عبد الله بن سلام رضي الله عنه في السُّوق وعليه حزمة مِن حطب، فقيل له: أليس الله قد أعفاك عن هذا؟! قال: بلى، ولكن أردتُ أن أدفع به الكِبْر، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((لا يدخل الجنَّة مَن كان في قلبه مثقال حبَّة مِن خردلٍ مِن كِبْر))[٥].

---

(١) ((التبصرة)) لابن الجوزي (ص ٤٣٧).
(٢) ((الزُّهد)) لأحمد (ص ١٥٨).
(٣) ((الزُّهد)) لهنَّاد بن السري (٢/٣٦٨).
(٤) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزَّالي (٢/٣٦٨).
(٥) رواه أحمد في ((الزُّهد)) (١٥٠)، وابن عساكر في ((تاريخ دمشق)) (٢٩/١٣٣). وصحَّح سنده البوصيري في ((إتحاف الخيرة)) (٧/٣٧٥)، وصحَّحه الألباني في ((السِّلسلة الصَّحيحة)) (٣٢٥٧).

نماذج مِن تواضع السَّلف:

- **تواضع عمر بن عبد العزيز:**

- (كان عند عمر بن عبد العزيز قوم ذات ليلة في بعض ما يحتاج إليه، فغشي سراجه، فقام إليه فأصلحه، فقيل له:

يا أمير المؤمنين! ألا نكفيك؟ قال: وما ضرَّني؟ قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز)[(١)].

- (ونادى رجلٌ أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: يا خليفة الله في الأرض! فقال له عمر: مه، إنِّي لما وُلِدت اختار لي أهلي اسمًا، فسمَّوْني عمر، فلو ناديتني: يا عمر، أجبتك. فلمَّا كَبِرْتُ اخترت لنفسي الكُنَى، فكُنِّيت بأبي حفص، فلو ناديتني: يا أبا حفص، أجبتك. فلمَّا ولَّيتموني أموركم سمَّيتموني أمير المؤمنين، فلو ناديتني: يا أمير المؤمنين؛ أجبتك. وأمَّا خليفة الله في الأرض، فلست كذلك، ولكن خلفاء الله في الأرض داود النَّبيُّ عليه السَّلام وشبهه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [ص: ٢٦])[(٢)].

- وقال سعيد بن سويد: (صلَّى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة، ثمَّ جلس وعليه قميص مرقوع الجيب مِن بين يديه ومِن خلفه، فقال له رجلٌ: يا أمير المؤمنين، إنَّ الله قد أعطاك فلو لبست؟ فنكَّس رأسه مليًّا[(٣)]، ثمَّ رفع رأسه، فقال: إنَّ أفضل القصد عند الجِدَة، وإنَّ أفضل العفو عند القُدْرة، وقال صلى

(١) ((سيرة عمر بن عبد العزيز)) لابن عبد الحكم (ص ٤٦).
(٢) ((المصدر السابق)) (٥١-٥٢).
(٣) مليًّا: أي طويلًا. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٢٩١/١٥).

الله عليه وسلم: مَن ترك زينةً لله ووضع ثيابًا حسنة تواضعًا لله وابتغاء لمرضاته، كان حقًّا على الله أن يدَّخر له عبقري الجنَّة [١])[٢].

• تواضع الإمام أحمد بن حنبل:

قال المروزيُّ: (لم أر الفقير في مجلس أعزَّ منه في مجلس أبي عبد الله؛ كان مائلًا إليهم مُقْصِرًا عن أهل الدُّنْيا، وكان فيه حِلْمٌ، ولم يكن بالعجول، وكان كثير التَّواضُع، تعلوه السَّكينة والوَقَار، إذا جلس في مجلسه بعد العصر للفتيا لا يتكلَّم حتى يُسْأَل، وإذا خرج إلى مسجده لم يتصدَّر)[٣].

(وكان ربَّما خرج إلى البقَّال، فيشتري الجرزة[٤] الحطب والشَّيء فيحمله بيده، ويتنوَّر في البيت)[٥].

وقال يحيى بن معين: (ما رأيت مثل أحمد بن حنبل!! صحبناه خمسين سنة ما افتخر علينا بشيء ممَّا كان فيه مِن الخير)[٦].

وقال إسماعيل بن إسحاق الثَّقفي: (قلت لأبي عبد الله أوَّل ما رأيته: يا أبا عبد الله، ائذن لي أن أقبِّل رأسك. فقال: لم أبلغ أنا ذاك)[٧].

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في ((التواضع والخمول)) (١٥٦)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (٨/٤٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
قال أبو نعيم: غريب من حديث إبراهيم الصائغ وإبراهيم بن أدهم تفرد به الحسن بن يحيى عن حازم بن جبلة، وقال العراقي في ((تخريج الإحياء)) (٣/٤٣٦): في إسناده نظر .
(٢) ((إحياء علوم الدِّين)) للغزَّالي (٣/٣٥٦).
(٣) ((سير أعلام النُّبلاء)) للذَّهبي (١١/٢١٨).
(٤) الجرزة: الحزمة من القت ونحوه. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (٥/٣١٧).
(٥) ((سير أعلام النُّبلاء)) للذَّهبي (١١/٢٠٩).
(٦) ((المصدر السابق)) (١١/٢١٤).
(٧) ((الآداب الشَّرعية)) لابن مفلح (٢/٢٥٨).

نماذج مِن تواضع العلماء المتقدِّمين:

• تواضع ابن تيمية:

قال البزَّار -وهو يذكر تواضع ابن تيمية-: (وأمَّا تواضعه: فما رأيت ولا سمعت بأحدٍ مِن أهل عصره مثله في ذلك، كان يتواضع للكبير والصَّغير والجليل والحقير والغني الصَّالح والفقير، وكان يدني الفقير الصَّالح ويكرمه ويؤنسه ويباسطه بحديثه المستحلى زيادة على مثله مِن الأغنياء، حتى أنَّه ربَّما خدمه بنفسه وأعانه بحمل حاجته جبرًا لقلبه وتقرُّبًا بذلك إلى ربِّه.

وكان لا يسأم ممَّن يستفتيه أو يسأله، بل يقبل عليه ببشاشة وجه، ولين عَرِيكة[(١)]، ويقف معه حتى يكون هو الذي يفارقه: كبيرًا كان أو صغيرًا، رجلًا أو امرأةً، حرًّا أو عبدًا، عالـمًا أو عامِّيًّا، حاضرًا أو باديًا، ولا يجبهه ولا يحرجه ولا ينفِّره بكلام يوحشه، بل يجيبه ويفهمه ويعرِّفه الخطأ مِن الصَّواب بلطف وانبساط، وكان يلزم التَّواضُع في حضوره مِن النَّاس، ومغيبه عنهم في قيامه وقعوده، ومشيه ومجلسه ومجلس غيره.

وحكى البزَّار عن بعض أصحابه قال: ولقد بالغ معي في حال إقامتي بحضرته في التَّواضُع والإكرام -يعني ابن تيمية- حتى إنه لا يذكرني باسمي، بل يلقِّبني بأحسن الألقاب، وأظهر لي مِن الأخلاق والمبالغة في التَّواضُع بحيث إنَّه كان إذا خرجنا مِن منزله بقصد القراءة، يحمل هو بنفسه النُّسخة، ولا يدع أحدًا منَّا يحملها عنه، وكنت أعتذر إليه مِن ذلك خوفًا مِن سوء الأدب، فيقول: لو حملته على رأسي لكان ينبغي، ألَا أحمل ما فيه كلام رسول الله صلَّى الله وعليه وسلَّم؟

---

(١) العريكة: الطبيعة. انظر: ((لسان العرب)) لابن منظور (١٠/٤٦٦).

وكان يجلس تحت الكرسي ويدع صدر المجلس، حتى إنِّي لأستحي مِن مجلسه هناك، وأعجب مِن شدَّة تواضعه، وكان هذا حاله في التَّواضُع والتَّنازل والإكرام لكلِّ مَن يَرِدُ عليه أو يصحبه أو يلقاه، حتى أنَّ كلَّ مَن لقيه يحكي عنه مِن المبالغة في التَّواضُع نحوًا ممَّا حكيته وأكثر مِن ذلك، فسبحان مَن وفَّقه وأعطاه وأجراه على خِلَال الخير وحباه)[١].

نماذج مِن تواضع العلماء المعاصرين:

- **تواضع الشَّيخ ابن باز:**

(كان الشَّيخ ابن باز -رحمه الله- آية في التَّواضُع فلا يكاد يُعْرَف له مثيلٌ في زمانه في هذه الخصلة؛ فهو لا يرى لنفسه فضلًا، ولا يرغب في المديح، ولا في التَّميز على النَّاس، وكان محبًّا للفقراء والمساكين، حريصًا على مجالستهم، والأكل معهم. ومِن صور تواضعه:

- لا يحتقر النَّصيحة، أو الفائدة مِن أي أحدٍ، حتى مِن الصَّغير:

في يومٍ مِن الأيَّام اتَّصل شاب صغير بسماحة الشَّيخ، وقال: يا سماحة الشَّيخ! النَّاس بأشد حاجة إلى علماء يفتونهم، وأقترح على سماحتكم أن تجعلوا في كلِّ مدينة مفتيًا؛ ليسهل الاتِّصال.

فقال له سماحة الشَّيخ: ما شاء الله أصلحك الله، كم عمرك؟ فقال ثلاثة عشر عامًا.

- يقول الرَّاوي للقصَّة: فقال لي سماحة الشَّيخ: هذا اقتراح طيِّب، يستحقُّ الدِّراسة، اكتب إلى الأمين العام لهيئة كبار العلماء بهذا، فكتبت ما أملى به،

---

(١) ((الأعلام العليَّة)) للبزار (ص ٥٠).

وممَّا جاء في كتابه:

أما بعد فقد اتصل بي بعض النَّاصحين، وقال: إنَّه يقترح وضع مفتين في كلِّ بلد، ونرى عرضه على اللَّجنة الدَّائمة؛ لنتبادل الرَّأي في الموضوع)[1].

- (تواضعه للمرأة والمسكين والسَّائل،...قيل له -وهو خارجٌ مِن مسجد الجامع-: هناك امرأة تريد إجابة عن أسئلتها، فما كان منه إلَّا أن اتكأ على عصاه وأصغى لها، وأجاب عن أسئلتها حتى انصرفت!)[2].

- **تواضع الشَّيخ ابن عثيمين:**

كان الشَّيخ ابن عثيمين يتحلَّى بالصِّفات والأخلاق النَّبيلة فكان مِن صفاته الصِّدق والإعراض عن الدُّنْيا والتَّواضُع، ومِن صور تواضعه:

- طفل صغير يأخذ بيد الشَّيخ ويذهب به إلى والده:

(يأتيه طفل صغير لم يبلغ السَّادسة مِن عمره فيمسك يد الشَّيخ مِن وسط طلَّابه مخاطبًا إيَّاه: أبي قدم إلى عنيزة للسَّلام عليك، أرجو أن تسلِّم عليه قبل أن تخرج، والشَّيخ يتبسم له ويلاطفه، والطِّفل آخذٌ بيد الشَّيخ إلى والده، فيتفاجأ والد الطِّفل بالشَّيخ أمامه، فيتعجَّب الوالد مِن هذا الخُلُق النَّبيل الذي يتحلَّى به الشَّيخ)[3].

- (ركب الشَّيخ مع أحد محبِّيه سيَّارة قديمة كثيرة الأعطال، فتتوقف أثناء الطَّريق، فقال الشَّيخ للسَّائق: ابق مكانك وأنزل أنا لأدفع السَّيَّارة، فنزل

---

(١) ((جوانب مِن سيرة الإمام عبد العزيز بن باز)) لمحمد إبراهيم الحمد (بتصرُّف) (ص ١٣٦).

(٢) ((المصدر السابق)) (ص ١٣٤).

(٣) ((الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين)) لوليد بن أحمد الحسين (ص ٣٩).

الشَّيخ ودفع السَّيَّارة بنفسه حتى تحركت، وهذا قمَّة التَّواضُع)[١].

- (في أثناء درسه في المسجد الذي بجوار بيته ذهب أحد الطُّلاب إلى دورة المياه -الحمَّام- فإذا أنبوبة منكسرة يتدفَّق منها الماء، فأخبر الشَّيخ بذلك أثناء الدَّرس، فما كان مِن الشَّيخ -رحمه الله- إلَّا أنَّ قطع الدَّرس وذهب إلى منزله، وأحضر عدَّة الإصلاح، وشارك الطُّلَّاب بنفسه في إصلاح هذا العطل)[٢].

التَّواضُع في واحة الشِّعر:

قال الشاعر:

ولا تمشِ فوق الأرضِ إلَّا تواضعًا ... فكم تحتها قومٌ هم منك أرفعُ
فإن كنتَ في عزٍّ وخيرٍ ومنعةٍ ... فكم مات مِن قومٍ هم منك أوضعُ[٣]

وقال موسى بن علي بن موسى:

تواضعْ تكنْ كالنَّجمِ لاح لناظرٍ ... على صفحاتِ الماءِ وهو رفيعُ
ولا تكُ كالدُّخانِ يعلو بنفسِه ... إلى طبقاتِ الجوِّ وهو وضيعُ[٤]

وقال آخر:

تواضعْ إذا ما نلتَ في النَّاسِ رفعةً ... فإنَّ رفيعَ القومِ مَن يتواضعُ[٥]

وقال آخر:

وكفى بملتمسِ التَّواضُعِ رفعةً ... وكفَى بملتمسِ العلوِّ سفالًا[٦]

---

(١) ((الجامع لحياة العلامة محمد بن صالح العثيمين)) لوليد بن أحمد الحسين (ص ٤٢).
(٢) ((المصدر السابق)) (ص ٤٣).
(٣) ((روضة العقلاء)) (ص ٦١).
(٤) ((أعيان العصر وأعوان النصر)) للصفدي (٥/٤٧٩).
(٥) ((جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب)) للهاشمي (٢/٤٨٠).
(٦) ((تاريخ بغداد وذيوله)) للخطيب البغدادي (١٤/١٣٤).

وقال المرادي:

وأحسنُ مقرونَيْنِ في عينِ ناظرٍ جلالةُ قدرٍ في خمولِ تواضعِ[(١)]

وقال آخر:

إنَّ التَّواضُعَ مِن خصالِ المتَّقي وبه التَّقِيُّ إلى المعالي يرتقي[(٢)]



(١) ((جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب)) للهاشمي (٢/ ٤٨٠).

(٢) ((موارد الظمأن لدروس الزمان)) للسلمان (٤/ ١٥٢).

فهرس الموضوعات

